سـورة هود

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ [هود: ١١٤]. وأسند أبو محمد الدارميّ في مسنده عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة»(١). وروى الترمذيّ عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شِبْتَ قال: «شَيبتني هود والواقعةُ والمرسلاتُ وَعَمَّ يتساءلون وإذا الشّمس كُوِّرت»(٢). قال: هذا حديث حسن غريب وقد رُوي شيء من هذا مرسلاً. وأخرجه الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»: حدّثنا سفيان بن وكيع قال: حدّثنا محمد بن بِشر عن عليّ بن صالح عن أبي إسحاق عن أبي جُحَيْفة قال: قالوا: يا رسول الله نراك قد شبت قال: «شَيبتني هود وأخواتها»(٣). قال أبو عبد الله: فالفزع يورث الشّيب وذلك أن الفزع يُذهِل النفس فينشّف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة مَنْبع، ومنه يَعْرَق، فإذا انتشف الفزعُ رطوبَته يبست المنابع فيبس الشعر وابيضّ؛ كما ترى الزرع الأخضر بِسقائه، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضّ؛ وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبسْ جلده، فالنفس تذهل بوَعيد الله وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، ويُنشّف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به؛ فمنه تَشيب(٤). وقال الله تعالى: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧] فإنما شابوا من الفزع. وأمّا سورة «هود» فلما ذكر الأمم، وما حلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى. فأهل اليقين إذا تلوها تَراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشُ بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لَحقّ لهم، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يَلطُف بهم في تلك الأحايين حتى يقرؤوا كلامه. وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور؛ مثل «الحاقّة» و «سأل سائل» و «إذا الشمس كوّرت» و «القارعة»، ففي تلاوة هذه السّور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانَه وبطشَه فتذهل منه النفوس، وتَشيب منه الرؤوس. قلت وقد قيل: إن الذي شيب النبيّ ﷺ من سورة «هود» قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال يزيد بن أبان: رأيت رسول الله ﷺ في منامي فقرأت عليه سورة «هود» فلما ختمتها قال: «يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء»(٥). قال علماؤنا: قال أبو جعفر النحاس: يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة؛ لأنك لو سميت امرأة بزيد لم تَصرِف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه. وعيسى بن عمر يقول: هذه هود بالتنوين على أنه اسم للسورة؛ وكذا إن سمى امرأة بزيد؛ لأنه لما سكن وسطه خف

---

(١) مرسل: الدارمي (٣٤٠٤) في فضائل القرآن، وقبله بحديث رواه عن عبد الله بن رباح، وكذا رواه البيهقي (٢/ ٤٧٢) في شعب الإيمان.

(٢) صحيح: الترمذي (٣٢٩٧) في التفسير وصححه الألباني هناك.

(٣) مرسل: الطبراني (٢٢/ ١٢٣) والقاضي (١/ ٣٥٨) في علل الترمذي والحكيم الترمذي (٢/ ٢٩٧) في نوادره.

(٤) كذا قال الحكيم الترمذي (٢/ ٢٩٧ـ ٢٩٨) في نوادر الأصول.

(٥) هذه رؤيا فلا تغرنك، ويزيد بن أبان متهم.

فصرف، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع، فقلت: هذه هود وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه: والدليل على هذا أنك تقول: هذه الرحمن، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ تقدّم القول فيه. ﴿كِتَـٰبٌ﴾ بمعنى هذا كتاب. ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ في موضع رفع نعت لكتاب. وأحسن ما قيل في معنى ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ قول قَتَادة؛ أي جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل. والإحكام منع القول من الفساد، أي نُظمت نظماً مُحْكَماً لا يلحقها تناقض ولا خَلَل. وقال ابن عباس: أي لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل[1]. وعلى هذا فالمعنى؛ أُحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ. وقد تقدّم القول فيه. وقد يقع اسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلت طعام زيد؛ أي بعض طعامه. وقال الحسن وأبو العالية: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ بالأمر والنهي[2]. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل، ثم فصّلها بالحلال والحرام[3]. مجاهد: أحكمت جملة، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها. وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت في التنزيل. وقيل: «فُصِّلت» أنزلت نَجْماً نَجْماً لتُتَدبَّر. وقرأ عكرمة «فَصَلَتْ» مخففاً أي حكَمت بالحق. ﴿مِن لَّدُنْ﴾ أي من عند. ﴿حَكِيمٍ﴾ أي محكم للأمور. ﴿خَبِيرٍ﴾ بكل كائن وغير كائن.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الكسائيّ والفرّاء: أي بألا؛ أي أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله. قال الزجاج: لئلا؛ أي أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله. قيل: أمر رسوله أن يقول للناس: ألا تعبدوا إلا الله. ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الله. ﴿نَذِيرٌ﴾ أي مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه. ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه. وقيل: هو من قول الله أوّلاً وآخراً؛ أي لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير؛ أي الله نذير لكم من عبادة غيره، كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ عطف على الأوّل. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال الفرّاء: «ثم» هنا بمعنى الواو؛ أي وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي

(١) انظر زاد المسير (٤/ ٧٣) غير مسند.

(٢) ضعيف إلى الحسن: رواه الطبراني (١١/ ١٩٣) بأسانيد ضعاف عنه.

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (١١/ ١٩٤) في تفسيره.

الاستغفار. وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم. قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقد تقدّم هذا المعنى في «آل عمران» مستوفى. وفي «البقرة» عند قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾. وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها؛ فالمغفرة أوّل في المطلوب وآخر في السبب. ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر. ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: يمتّعكم يُعمِّركم؛ وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أمتع اللَّهُ بك ومتَّع. وقال سهل بن عبد الله: المتاع الحسن ترك الْخَلق والإقبال على الحق. وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ مَخُوف، ما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها؛ والأوّل أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]. وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى. والله أعلم. قال مقاتل: فأبوا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقَذَر والجيف والكلاب[1]. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله. وقيل: ويؤت كلّ من فضلت حسناته على سيئاته ﴿فَضْلَهُ﴾ أي الجنة، وهي فضل الله؛ فالكناية في قوله: ﴿فَضْلَهُ﴾ ترجع إلى الله تعالى. وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده أو رجله، أو ما تطوّع به من ماله فهو فضل الله، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافراً. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي يوم القيامة، وهو كبير لما فيه من الأهوال. وقيل: اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره: و ﴿تَوَلَّوْا﴾ يجوز أن يكون ماضياً ويكون المعنى: وإن تولّوا فقل لهم: إني أخاف عليكم. ويجوز أن يكون مستقبلاً حذفت منه إحدى التاءين والمعنى: قل لهم: إن تتولّوا فإني أخاف عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي بعد الموت. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثواب وعقاب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم. ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف، قال ابن عباس: يخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعداوة، ويظهرون خلافه.

---

(١) معضل: وبين مقاتل ورسول الله ﷺ سنوات طوال.

نزلت في الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حُلو الكلام حُلو المنطق، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء(١). وقال مجاهد: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ شكّاً وامتراء(٢). وقال الحسن: يثنونها على ما فيها من الكفر. وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مرّ بالنبيّ ﷺ ثَنَى صدره وظهره، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه، لكيلا يراه النبيّ ﷺ فيدعوه إلى الإيمان(٣)، حكى معناه عن عبد الله بن شدّاد فالهاء في ﴿مِنْهُ﴾ تعود على النبي ﷺ. وقيل: قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا، واستغشينا ثيابنا، وثَنَينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية. وقيل: إن قوماً من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء، فبيّن الله تعالى أن التَّنسك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهروه من قول وعمل. وروى ابن جرير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَونِي صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا منْهُ» قال: كانوا لا يجامعون النساء، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء، فنزلت هذه الآية(٤). وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس: «أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوِي صُدُورُهُمْ» بغير نون بعد الواو، في وزن تنطوي؛ومعنى «تَثنوِي» والقراءتين الأخريين متقارب؛ لأنها لا تَثْنوِي حتى يَثْنوها. وقيل: كان بعضهم ينحني على بعض يسارّه في الطّعن على المسلمين، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى. «لِيَسْتَخْفُوا» أي ليتواروا عنه؛ أي عن محمد أو عن الله. ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يُغطُّون رؤوسهم بثيابهم. قال قَتَادة: أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهره، واستغشى ثوبه، وأضمر في نفسه هَمّه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «ما» نفي و «مِنْ» زائدة و ﴿دَابَّةٍ﴾ في موضع رفع؛ التقدير: وما دابة. ﴿إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «على» بمعنى «من»، أي من الله رزقها؛ يدلّ عليه قول مجاهد: كل ما جاءها من رزق فمن الله(٥). وقيل: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ أي فضلاً لا وجوباً. وقيل: وعداً منه حقاً. وقد تقدّم بيان هذا المعنى في «النساء؛ وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء. ﴿رِزْقُهَا﴾ رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العمومَ ومعناها الخصوص؛ لأن كثيراً من الدواب هلك قبل أن يُرزق. وقيل: هي عامة [في كل دابة]: وكل دابة لم ترزق رزقاً تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بما قبلُ: أنه سبحانه أخبر برزق الجميع، وأنه لا يَغفلُ عن تربيته،

---

(١) تفرد به الواحدي ص٢٢٢ بلا سند في أسباب النزول .

(٢) صحيح إليه : الطبري (١١/١٩٨) في تفسيره .

(٣) مرسل : وهو صحيح إلى الحسن ، السابق نفسه .

(٤) صحيح : وفيه حجاج عن ابن جريج عن محمد بن عباد به ، انظر تفسير الطبري (١١/١٩٩) ورواه البخاري (٤٦٨١ ـ ٤٦٨٢) في التفسير .

(٥) ضعيف : للانقطاع بين ابن جريج ومجاهد ، رواه الطبري (١٢/٣) في تفسيره .

فكيف تَخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟ والدّابة كل حيوان يَدِبُّ. والرزق حقيقته ما يتغذّى به الحيّ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده. ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلَفها؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقال: إن اللّبن الذي في الثّدي ملك للطفل. وقال تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات: ٢٢] وليس لنا في السماء ملك؛ ولأن الرزق لو كان ملكاً لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه. وقد تقدّم في «البقرة» هذا المعنى والحمد لله. وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرّحى يأتيها بالطّحين، والذي شدق الأشداق هو خالق الأرزاق. وقيل لأبي أسيد: من أين تأكل ؟ فقال: سبحان الله والله أكبر إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد. وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ما له إلا السماء يا هذا الأرضُ له والسماءُ له؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخافُ الفقرَ واللّهُ رازقي ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ
تكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِمْ وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم: أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم، لما هاجروا وقدموا على رسول الله ﷺ في ذلك وقد أرْمَلوا[1] من الزاد، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله، فلما انتهى إلى باب رسول الله ﷺ سمعه يقرأ هذه الآية: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ فقال الرجل: ما الأشعريّون بأهون الدواب على الله؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ؛ فقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغوث، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله ﷺ فوعده؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزاً ولحماً فأكلوا منها ما شاؤوا، ثم قال بعضهم لبعض: لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله ﷺ ليقضي به حاجته؛ فقالوا للرجلين: اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله ﷺ فإنا قد قضينا منه حاجتنا، ثم إنهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به؛ قال: «ما أرسلت إليكم طعاماً» فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم، فسأله رسول الله ﷺ فأخبره ما صنع، وما قال لهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك شيء رزقكموه الله»[2].

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي من الأرض حيث تأوي إليه. ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أي الموضع الذي تموت فيه فتدفن؛ قاله مقْسَم عن ابن عباس[3] رضي الله عنهما. وقال الربيع بن أنس: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ أيام حياتها. ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ حيث تموت وحيث تبعث[4]. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس:

---

(١) أرملوا : في النهاية (٢/ ٢٦٥) قال ابن الأثير : نفد زادهم وأصله من الرمل ، كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قيل للفقير : التسرب ، أ هـ .

(٢) مرسل : الحكيم الترمذي (٣/ ٣٥) عن زيد بن أسلم مرسلاً .

(٣) ضعيف : فيه الليث بن أبي سليم : مختلط جداً ، ورواه الطبري (١٢/ ٣) في تفسيره .

(٤) حسن إليه : السابق (١٢/ ٤) .

﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾في الرّحم، ﴿ومُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب[١]. وقيل: ﴿ويَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الجنة أو في النار. ﴿ومُسْتَوْدَعَهَا﴾ في القبر؛ يدلّ عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة وأهل النار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦] ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدّم في «الأعراف» بيانه والحمد لله. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء. قال كعب: خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكناً، ثم خلق الريح فجعل الماء على مَتْنها، ثم وضع العرش على الماء[٢]. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فقال: على أي شيء كان الماء؟ قال: على مَتْن الرّيح[٣]. وروى البخاريّ عن عِمْران بن حُصَين. قال: كنت عند النبيّ ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: بَشَّرْتَنَا فأعطنا مرتين فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قَبِلنا، جئنا لنتفقه في الدِّين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان اللَّهُ ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرضَ وكتب في الذِّكْر كلّ شيء»؛ ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطَعُ دونها السَّرابُ؛ وايمُ اللّه لوددْت أنها قد ذهبتْ ولم أقم[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي خلق ذلك ليبتلي عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث. وقال قَتَادة: معنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ١١]أيكم أتمّ عقلاً. وقال الحسن وسفيان الثَّوريّ: أيكم أزهد في الدنيا[٥]. وذكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال: يا نائم قم فتعبَّدْ، فقال: يا رُوح الله قد تَعبَّدتُ، فقال «وبم تَعَبَّدتَ»؟ قال: قد تركت الدنيا لأهلها؛ قال: نَمْ فقد فقتَ العابدين[٦]. الضّحاك: أيكم أكثر شكراً[٧]. مقاتل: أيكم أتقى لله. ابن عباس:

(١) إنما وجدته عن العوفي لا عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ، كما في السابق .
(٢) الخبر من الإسرائيليات : وقد ناقشناه في سورة البقرة .
(٣) صحيح : الحاكم (٢/ ٣٦٧، ٣٧١) في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي والطبري (١٢/ ٧) في تفسيره ، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٥) وعبد الرزاق (٩٠٨٩) في المصنف ، وأبو الشيخ (٢/ ٥٧٦) في العظمة .
(٤) صحيح : البخاري (٣١٩١) في بدء الخلق .
(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٠٥) لأبي حيان .
(٦) خبر باطل : ولا يصح مثل هذا ، وفيه رائحة الزندقة .
(٧) انظر قبل السابق .

أيكم أعمل بطاعة الله عـز وجل. ورُوي عن ابن عمر أن النبي ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ قال: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»[١] فجمع الأقاويل كلها، وسيأتي في «الكهف» هذا أيضاً إن شاء الله تعالى. وقد تقدّم معنى الابتلاء. ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي دللت يا محمـد على البعث. ﴿مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ وذكرت ذلك للمشركين لقـالوا: هذا سحر. وكسرت «إنّ» لأنها بعد القول مبتدأة. وحكى سيبويه الفتح. ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه، وبعده ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ لأن فيه ضميراً. و ﴿سِحْرٌ﴾ أي غرور باطل، لبطلان السحر عندهم. وقرأ حمزة والكسائي: «إِنْ هَذَا إِلاَّ سَاحِرٌ مُبِينٌ»؛ كناية عن النبي ﷺ.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝﴾

قوله تـعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ اللام في ﴿وَلَئِنْ﴾ للقـسم، والجواب ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾. ومعنى ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ إلى أجل مـعدود وحين معـلوم؛ فالأمّة هنـا المدّة؛ قاله ابن عـباس ومجاهد وقَتَادة وجمهور المفسّرين[٢]. وأصل الأمّة الجماعة؛ فعبّر عن الحين والسنين بالأمّة لأن الأمّة تكون فيهـا. وقيل: هو على حذف المضاف؛ والمعنى إلى مجيء أمّة ليـس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك. أو إلى انقراض أمّة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد انقراضها من يؤمن. والأمّة اسم مشترك يقال على ثمانيـة أوجه: فالأمّة تكون الجـماعة؛ كقـوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣]. والأمّة أيضاً أتباع الأنبيـاء عليهم السلام. والأمّة الرجل الجامع للخير الذي يُقـتدى به؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]. والأمّة الدِّين والملّة؛ كـقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣]. والأمة الحين والزمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] والأمّة القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه؛ يقال من ذلك: فلان حسن الأُمَّة أي القامة. والأمّة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يُشْرِكُه فيه أحد؛ قال النبي ﷺ: «يُبعث زيدُ بن عمرو بن نُفَيْل أمّة وحده»[٣]. والأمة الأم؛ يقال: هذه أمّة زيد، يعني أمّ زيد. ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعني العـذاب؛ وقالوا هذا إما تكـذيباً للعذاب لتـأخره عنهم، أو اسـتعـجالاً واستهزاء؛ أي مـا الذي يحبسه عنا. ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيل: هو قتل المشركين ببدر؛

---

(١) موضـوع: قال الحافظ (٢/ ١٤٥) في تخـريج الكشاف: رواه داود بن المحبر في العقل، وهي أحـاديث كذب كلها، ورواه الطبري (١٢/ ٨) في التفسير.

(٢) انظر هذه الأقـوال عند الطبـري (١٢/ ٨ ـ ٩) والحديث صـحيح عن ابن عبـاس رضي الله عنهـما ورواه الحـاكم (٢/ ٣٧٢) وسنده حسن ففيه عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبي النجود إمام القراءات لكن في الحديث له أوهام.

(٣) حسن: المجمع (٩/ ٤١٧) للهيثمي رحمه الله، وعزاه لأحمد وقـال: فيه المسعودي، وقد اختلط، وبقية رجاله ثقات، ثم ذكـر رواية له عن جابر رضي الله عنهـما، وقال: رواه أبو يعلى وفـيه مجـالد، وهذا مما مدح من حديث مجالد، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي نزل وأحاط. ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي جزاء ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسان اسم شائع للجنس في جميع الكفار. ويقال: إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت. وقيل: في عبد الله بن أبي أميّة المخزوميّ. ﴿رَحْمَةً﴾ أي نعمة. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي سلبناه إياها. ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ أي يائس من الرحمة. ﴿كَفُورٌ﴾ للنعم جاحد لها؛ قاله ابن الأعرابي. النحاس: ﴿لَيَئُوسٌ﴾ من يَئِس يَيْأَس، وحكى سيبويه يَئِس يَيْأَس على فَعِل يفعِل، ونظيره حَسِب يَحْسِب ونَعِم يَنْعِم، ويَأس ييئس؛ وبعضهم يقول: يَئِس يَيْئِسُ؛ ولا يعرف في الكلام العربي إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل؛ وفي واحد منها اختلاف. وهو يَئِسٌ و «يَؤُوسٌ» على التكثير كفخور للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ أي صحة ورخاء وسعة في الرزق. ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي بعد ضُرٍّ وفقر وشدّة. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضُّرّ والفقر. ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي يفرح ويفخر بما نالـه من السَّعَة وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجل فاخـر إذا افتخر وفخور للمبالغة قال يعقـوب القارئ: وقرأ بعض أهل المدينة: «لَفَرِحٌ» بضم الراء كما يقال: رجل فَطُنٌ وحَذُرٌ ونَدُسٌ. ويجوز في كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني المؤمنين، مدحهم بالصـبر على الشدائد. وهو في موضع نصب. قـال الأخفش: هو اسـتثناء ليس من الأوّل؛ أي لكن الذين صـبروا وعـملوا الصالحـات في حالتي النعمة والمحنة. وقال الفرّاء: هو استثناء من ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس يشمل الكـافر والمؤمن؛ فهو اسـتثناء متـصل وهو حسن. ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف. ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٣﴾

قـوله تعـالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي فلعلك لعـظيم مـا تراه منهم من الكفـر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ هَمَّ أن يدع سبّ آلهتهم فنـزلت هذ الآية؛ فالكلام معناه الاستفـهام؛ أي هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك ؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ؛ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وقيل: معنى الكلام النفي مع استبعاد؛ أي لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي ﷺ: لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك، فهمّ النبي ﷺ أن يدع سبّ آلهتهم؛ فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ عطف على ﴿تَارِكٌ﴾ و﴿صَدْرُكَ﴾ مرفوع به، والهاء في «به» تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال: ﴿ضَائِقٌ﴾ ولم يقل ضيّق ليشاكل «تَارِكٌ» الذي قبله؛ ولأن الضّائق عارض، والضيّق ألزم منه. ﴿أَن يَقُولُوا﴾ في موضع نصب؛ أي كراهية أن يقولوا، أو لئلا يقولوا كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي لئلا تضلّوا. أو لأن يقولوا. ﴿لَوْلَا﴾ أي هلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه؛ قاله عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ؛ فقال الله تعالى: يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ إنما عليك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حافظ وشهيد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ «أم» بمعنى بل، وقد تقدّم في «يونس» أي قد أزحت علّتهم وإشكالهم في نبوّتك بهذا القرآن، وحَجَجْتَهم به؛ فإن قالوا: افتريته أي اختلقته فليأتوا بمثله مفترًى بزعمهم. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الكهنة والأعوان.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي في المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ واعلموا صدق محمد ﷺ، واعلموا ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام معناه الأمر. وقد تقدّم القول في معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز في مقدمة الكتاب. والحمد لله. وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ وبعده. ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ولم يقل لك؛ فقيل: هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ وفي ﴿فَاعْلَمُوا﴾ للجميع؛ أي فليعلم الجميع ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ قاله مجاهد: وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ وفي ﴿فَاعْلَمُوا﴾ للمشركين؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولا تهيأت لكم المعارضة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ للنبي ﷺ وللمؤمنين، وفي ﴿فَاعْلَمُوا﴾ للمشركين.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ كان زائدة، ولهذا جزم بالجواب فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ قاله الفراء. وقال الزجاج: ﴿مَن كَانَ﴾ في موضع جزم بالشرط، وجوابه ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ أي من يكُنْ يريد؛

والأول في اللفظ ماض والثاني مستقبل، كما قال زهير:

وَمَنْ هَاب أسباب المنية يَلْقَها ولو رامَ أسبابَ السَّماء بسُلَّمِ

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقيل: نزلت في الكفار؛ قاله الضحاك، واختاره النحاس؛ بدليل الآية التي بعدها ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ أي من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق، لكن لا حسنة له في الآخرة. وقد تقدم هذا المعنى في «براءة» مستوفى. وقيل: المراد بالآية المؤمنون؛ أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجل له الثواب ولم يُنقص شيئاً في الدنيا، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا، وهذا كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»(١) فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره، وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل ملّة. وقيل: هو لأهل الرياء، وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء: «صُمتم وصلّيتم وتصدّقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال: «إنّ هؤلاء أولُ من تُسْعَر بهم النار». رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاء شديداً وقال: صدق رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وقرأ الآيتين(٢)، خرّجه مسلم في صحيحه بمعناه والترمذيّ أيضاً. وقيل: الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى. وقال ميمون بن مِهْران: ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّي ثوابها؛ فإن كان مسلماً مخلصاً وُفّي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافراً وُفِّي في الدنيا. وقيل: من كان يريد الدنيا بغزوه مع النبي ﷺ وُفِّيَها، أي وُفِّي أجر الغَزاة ولم يُنقص منها؛ وهذا خصوص والصحيح العموم.

الثانية: قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات». وتدلك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدلّ على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان في معناه.

الثالثة: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التي في «الشورى» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠] الآية. وكذلك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥] قيدها وفسرها التي في «سبحان» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا﴾ فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أنها منسوخة بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾. والصحيح ما ذكرناه؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا ظاهره خبر عن إجابة كلّ داعٍ دائماً على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]. والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية، ولاستحالة

---

(١) صحيح: البخاري (١) في بدء الوحي، مسلم (١٩٠٧) في الإمارة.

(٢) صحيح: مسلم بنحوه (١٩٠٥) في الإمارة، الترمذي (٢٣٨٢) في الزهد والطبري (١٢/ ١٥ـ ١٦).

الكذب على الله تعالى؛ فأما الأخبـار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخهـا على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول؛ ويأتي في «النحل» بيانه إن شاء الله تعالى.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قولـه تـعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ إشارة إلى التـخليد، والمؤمن لا يُخلَّد؛ لقولـه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١١٦] الآية. فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائي على الكفر. وقـيل: المعنى ليس لـهم إلا النار في أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفـاعة، وإما بالقَبْضـة. والآية تقتضي الوعيد بسلْب الإيمان؛ وفي الحـديث الماضي يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدّم بيانه في «النساء» ويأتي في آخر «الكهف». ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ابتداء وخبر؛ قـال أبو حاتم: وحذف الـهاء؛ قال النحاس: هذا لا يـحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أي وباطل عملـه. وفي حرف أبيّ وعبـد الله: «وَبَاطِلاً مَا كَانُوا يَعْمَلُون» وتكون «ما» زائدة؛ أي وكانوا يعملون باطلاً.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أي أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبيّ ﷺ، ومعه من الفضل ما يتبيّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟[١] عن علي بن الحسين والحـسن بن أبي الحسن. وكذلك قـال ابن زيد: إن الذي على بيّنة هو من اتبع النبيّ محـمداً ﷺ. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ من الله، وهو النبيّ ﷺ. وقـيل المراد بقولـه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ النبيّ ﷺ، والكلام راجع إلى قولـه: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾، أي أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل على ما يأتي وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أن الله لا يُسْلِمه. والـهاء في ﴿رَّبِّهِ﴾ تعود عليه، وقولـه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾. وروى عكرمة عن ابن عباس أنـه جبريل[٢]؛ وهو قول مجـاهد والنَّخَعيّ. والـهاء في ﴿مِّنْهُ﴾ لله عز وجل؛ أي ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل. وقال مجاهد: الشاهد ملَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده[٣]. وقال الحسن البصري وقَـتَادة: الشاهد لسان رسول الله ﷺ[٤]. قال محمد بن علي بن

(١) كذا بنحوه عند الطبري (١٢/١٨) في تفسيره.

(٢) حسن: الطبري (١٢/١٩) في التفسير ورجحه الطبري، ورواه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٠١٤) في تفسيره.

(٣، ٤) الطبري (١٢/١٩) في تفسيره.

(٥) موضـوع: مجمع الزوائد (٧/ ٣٧) للهـيثمي وفيـه خليد بن دعلج وهو متـروك كما عـزاه للطبراني في الأوسط. ورواه الطبري بسند آخر (١٢/١٧) في تفسيره.

الحنفيـة: قلت لأبي أنت الشاهد؟ فقـال: وددت أن أكون أنا هو، ولكنه لسـان رسول اللـه ﷺ[٥]. وقيل: هو علي بن أبي طالب؛ روي عن ابن عباس أنه قال: هو علي بن أبي طالب[١]، وروي عن عليّ أنه قال: ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان؛ فقال لـه رجل: أي شيء نزل فيك؟ فقال عليّ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[٢]. وقيل: الشاهد صورة رسول اللـه ﷺ ووجهه ومخائلـه؛ لأن من كان لـه فـضل وعقل فنظر إلى النبيّ ﷺ علم أنه رسول اللـه ﷺ؛ فـالـهاء على هذا ترجع إلى النبيّ ﷺ، على قول ابن زيد وغـيره[٣]. وقيـل: الشاهد القـرآن في نظمه وبلاغـته، والمعـاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد؛ قالـه الحسين بن الفضل، فالـهاء في﴿مِّنْهُ﴾ للقرآن. وقال الفرّاء: قال بعضهم: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الإنجيل، وإن كان قبلـه فهو يتلو القرآن في التصديق؛ والـهاء في ﴿مِّنْهُ﴾ للـه عزّ وجلّ. وقيل: البـيّنة معرفة اللـه التي أشرقت لـها الـقلوب، والشاهد الذي يتلوه العقلُ الذي ركِّب في دمـاغه وأشـرق صـدره بنوره. ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبـل الإنجيل. ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحاق الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ: « ومن قبله كتابَ موسى » بالنـصب؛ وحكاها المهدويّ عن الكَلْبيّ؛ يكون معطوفاً على الهاء في ﴿يَتْلُوهُ﴾ والمعنى: ويتلو كـتابَ موسى جـبريلُ عليـه السلام؛ وكـذلك قال ابن عبـاس رضي الله عنهما؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى. ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع «كتاب» على أن يكون المعنى: ومن قبله كتاب موسى كذلك؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد. ﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف. ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إشارة إلى بني إسرائيل، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار؛ حكاه القشيريّ. والهاء في﴿ بِهِ﴾ يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ ﷺ. ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام. ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني من الملل كلها؛ عن قَتَادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير: ﴿ الْأَحْزَابِ﴾ أهل الأديان كلها؛ لأنهم يتحازبون. وقيل: قريش وحلفاؤهم. ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي هو من أهل النار؛ وأنشد حسان:

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحية فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها

وفي صحـيح مسلم من حديـث أبي يونس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «والذي نفس محـمد بيده لاَ يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرانيٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلاّ كان من أصحاب النار»[٤]. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك. ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي القـرآن من الله؛ قاله مـقاتل. وقـال الكَلْبيّ: المعنى فـلا تك في مرية في أن الكافـر في النار. ﴿إِنَّهُ

---

(١) لم أجده موصولا .

(٢) ضعـيف : الطبري (١٢/ ١٩) وفيه من لم أعـرفهم ففـيه رزيق بن مرزوق والصـباح الفراء ولم يوثقهـما إلا ابن حبان.

(٣) هو معنى حسن لكن لا دليل عليه ، ولم أجده موصولا .

(٤) صحيح : مسلم (١٥٣/ ٢٤٠) في الإيمان عن أبي يونس عن أبي هريرة .

﴿الْحَقُّ﴾ أي القول الحق الكائن؛ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المكلَّفين.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذباً، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكاً وولداً، وقالوا للأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي يحاسبهم على أعمالهم. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني الملائكة الحفظة[١]، عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان: سألت الأعمش عن ﴿الْأَشْهَادُ﴾ فقال: الملائكة[٢]. الضحاك: هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات. وقال قتادة: عنى الخلائق أجمع[٣]. وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن مُحرِز عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وفيه قال: «وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كَذَبوا على الله»[٤]. ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن تكون «الَّذِينَ» في موضع خفض نعتاً للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ أي هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أعاد لفظ «هم» تأكيداً.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فائتين من عذاب الله. وقال ابن عباس: لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني أنصاراً، و ﴿مِّن﴾ زائدة[٥]. وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى الذي تقديره: أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي على قدر

---

(١) صحيح إلى مجاهد: الطبري (١٢/ ٢٤) في تفسيره موصولا، ورواه أيضاً منقطعاً عن ابن جريج.

(٢، ٣) حسن: السابق (١٢/ ٢٤).

(٤) صحيح: البخاري (٢٤٤١) في المظالم، مسلم (٢٧٦٨) في التوبة.

(٥) لا والذي رفع السماوات بلا عمد، ما ينبغي أن تكون في القرآن زيادات فهذا زعم باطل، فلكل حرف قيمته ووظيفته التي يؤديها، والله أعلم.

كفرهم ومعاصيهم. ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ «ما» في موضع نصب على أن يكون المعنى: بما كانوا يستطيعون السمع. ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره. والعرب تقول: جزيته ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أمرتَ به فقد تَرَكْتُك ذا مال وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ ظرفاً، والمعنى: يضاعف لهم أبداً، أي وقت استطاعتهم السمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً. ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ نافية لا موضع لها؛ إذ الكلام قد تمّ قبلها، والوقف على العذاب كاف؛ والمعنى: ما كانوا يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سمعاً ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد. قال الفرّاء: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم في اللوح المحفوظ. وقال الزجاج: لبغضهم النبيّ ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه. قال النحاس: وهذا معروف في كلام العرب؛ يقال: فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلاً عليه.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي ضاع عنهم افتراؤهم وتَلَف.

قوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه: ﴿ لا جَرَمَ ﴾ بمعنى حق، فـ ﴿ لا ﴾ و ﴿ جَرَمَ ﴾ عندهما كلمة واحدة، و «أنّ» عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس. قال المهدويّ: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بدّ ولا محالة، وهو قول الفرّاء أيضاً؛ ذكره الثعلبيّ. وقال الزجاج: ﴿ لا ﴾ هاهنا نفي وهو ردّ لقولهم: إن الأصنام تنفعهم؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك، وجرم بمعنى كَسَب؛ أي كسب ذلك الفعلُ لهم الخسران، وفاعل كسب مضمر، و «أنّ» منصوبة بجرم، كما تقول كَسَب جفاؤُك زيداً غضبه عليك؛ وقال الشاعر:

نَصبنا رأسه في جِذْعِ نَخْلٍ بما جَرَمَتْ يداه وما اعتدينا

أي بما كسبت. وقال الكسائيّ: معنى ﴿ لا جَرَمَ ﴾ لا صَدّ ولا مَنْع عن أنهم. وقيل: المعنى لا قَطعَ قاطعٌ، فحذف الفاعل حين كثر استعماله؛ والجَرْم القَطْع؛ وقد جَرَمَ النَّخْلَ واجترَمَه أي صَرَمه فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّم وجُرَّامٌ وهذا زمن الجَرَام والجِرَام، وجَرَمتُ صوف الشاة أي جززتُه، وقد جَرَمتُ منه أي أخذتُ منه؛ مثل جَلَمْت الشيء جَلْماً أي قطعتُ، وجَلَمت الجزورَ أجلمها جَلْماً إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجَلْمته ساكنة اللام إذا أخذته أجمع، وهذه جَلَمة الجزور بالتحريك أي لحمها أجمع؛ قاله الجوهريّ. قال النحاس: وزعم الكسائيّ أن فيها أربع لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أَنْ ذا جَرَمَ، قال: وناس من فَزَارة يقولون: لا جَرَ أنّهم بغير ميم. وحكى الفرّاء فيه لغتين أخريين قال: بنو عامر يقولون: لا ذا جَرَمَ، قال: وناس من العرب يقولون:

لا جُرم بضم الجيم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾﴿ الَّذِينَ ﴾ اسم ﴿ إِنَّ ﴾ و ﴿ آمَنُوا ﴾صلة، أي صدّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ عطف على الصلة. قال ابن عباس: أخبتوا أنابوا[١]. مجاهد: أطاعوا. قَتَادة: خشعوا وخضعوا[٢]. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للمخافة الثابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخَبْت وهو الأرض المستوية الواسعة: فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عزّ وجلّ المستمرّة ذلك على استواء. ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ قال الفرّاء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. ﴿أُولَٰئِكَ ﴾ خبر ﴿ إِنَّ ﴾.

﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ ابتداء، والخبر ﴿ كَالأَعْمَىٰ ﴾ وما بعده. قال الأخفش: أي كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر كالأعمى والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فردّ إلى الفريقين وهما اثنان؛ روي معناه عن قَتَادة وغيره[٣]. قال الضّحّاك: الأعمى والأصمّ مثلٌ للكافر، والسميع والبصير مثل للمؤمن[٤]. وقيل: المعنى هل يستوي الأعمى والبصير، وهل يستوي الأصمّ والسميع. ﴿مَثَلاً ﴾ منصوب على التمييز. ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ في الوصفين وتنظرون.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي ﷺ تنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم. ﴿إِنِّي﴾ أي فقال: إني؛ لأن

(١) ضعيف جداً : الطبري (١٢/ ٢٧) من طريق العوفيين وفيه جهالة وضعف .

(٢) حسن إليه : السابق (١٢/ ٢٨) .

وقال الطبري ـ رحمه الله ـ بعد ذكر هذه الأقوال : وهي متقاربة المعاني وإن اختلفت ألفاظها ، لأن الإنابة إلى الله من خوف الله ، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة ، والطمأنينة إليه من الخشوع له ، غير أن نفس الإخبات عند العرب الخشوع والتواضع (أ. هـ).

(٣) صحيح إلى قتادة : الطبري (١٢/ ٢٩) .

(٤) إنما رواه الطبري (١٢/ ٢٨ـ ٢٩) مسنداً عن ابن عباس ، من طريق ابن جريج عنه وهو منقطع ،ورواه موصولاً بسند صحيح إلى مجاهد أيضاً .

في الإرسال معنى القول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيّ «أنّي» بفتح الهمزة؛ أي أرسلناه بأني لكم نذير مبين. ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه؛ كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٧] ثم قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ أي اتركوا الأصنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده. ومن قرأ «إنّي» بالكسر جعله معترضاً في الكلام، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا إلا الله. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۝﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: الملأ الرؤساء؛ أي هم مليئون بما يقولون. وقد تقدّم هذا في «البقرة» وغيرها. ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً﴾ أي آدميّا. ﴿مِّثْلَنَا﴾ نصب على الحال. و ﴿مِّثْلَنَا﴾ مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين؛ كما قال الشاعر:

يا رُبَّ مِثْلِكِ في النِّساءِ غَرِيرَةٍ

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أراذل جمع أَرْذُل وأَرْذُل جمع رَذْل؛ مثل كَلْب وأكْلُب وأكَالب. وقيل: الأراذل جمع الأَرْذل، كأسَاود جمع الأَسْوَد من الحيّات. والرَّذْل النَّذْل؛ أرادوا اتبعك أخسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا. قال الزجاج: نسبوهم إلى الحياكة؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة. قال النحاس: الأراذل هم الفقراء، والذين لا حسب لهم، والخسيسو الصناعات. وفي الحديث: «إنهم كانوا حاكَة وحَجَّامين»[1]. وكان هذا جهلاً منهم؛ لأنهم عابوا نبيّ الله ﷺ بما لا عيب فيه؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات، وهم يرسَلون إلى الناس جميعاً، فإذا أسلم منهم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم.

قلت: الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء؛ كما قال هِرَقْل لأبي سفيان: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم؛ فقال: هم أتباع الرسل. قال علماؤنا: إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأَنَفة من الانقياد للغير؛ والفقير خلِيٌّ عن تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد. وهذا غالب أحوال أهل الدنيا.

الثالثة: اختلف العلماء في تعيين السّفلة على أقوال؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السّفلة هم الذين يَتَقلَّسون، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات. وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السِّفِلة الذين يأكلون الدنيا بدينهم؛ قيل له: فمن سفلة السّفلة؟ قال: الذي يُصلح دنيا غيره بفساد

(١) ضعيف: لم يذكره إلا أبو حيان (٦٦/ ٣٨٩) في البحر المحيط.

دينه. وسئل علي رضي الله عنه عن السّفلة فقال: الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا؛ وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقيل لمالك بن أنس رضي الله عنه: مَن السّفلة؟ قال: الذي يسبّ الصحابة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الأرذلون الحاكَة والحجّامون. يحيى بن أكثم: الدبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب.

الرابعة: إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفلة، فقال: إن كنتُ منهم فأنت طالق؛ فحكى النقاش أن رجلاً جاء إلى التّرمذي فقال: إن امرأتي قالت لي: يا سَفلة، فقلت: إن كنتُ سَفلة فأنت طالق؛ قال التّرمذيّ: ما صناعتك؟ قال: سماك؛ قال: سَفلة واللّه، سَفلة والله سفلة.

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك، وابن الأعرابي لا يلزمه شيء.

قوله تعالى: ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ . أي ظاهر الرأي، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدا يبدو إذا ظهر؛ كما قال:

فاليوم حين بَدَوْن للنُّظار

ويقال للبرّية بادية لظهورها. وبدا لي أن أفعل كذا، أي ظهر لي رأي غير الأول. وقال الأزهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي. ويجوز أن يكون ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ: «بَادِئَ الرأي» أي أوّل الرأي؛ أي اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وترك الهمز. وانتصب على حذف «في» كما قال عز وجل: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ٧] ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي في اتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوّته ﷺ. ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي على يقين؛ قاله أبو عمران الجُوني. وقيل: على معجزة؛ وقد تقدّم في «الأنعام» هذا المعنى. ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ أي نبوّة ورسالة [1]، عن ابن عباس؛ وهي رحمة على الخلق. وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: بالإيمان والإسلام. « فعُمِّيَت عليكُمْ» [2] أي عميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها. يقال: عَميتُ عن كذا،

(١) صحيح إلى ابن جريج: الطبري (١٢/ ٣٢) وأبو حيان (٦/ ٣٩٢) عن ابن عباس بلا سند.
(٢) قراءة متواترة.

وعَمِي عليّ كذا أي لم أفهمه. والمعنى: فَعميت الرحمةُ؛ فقيل: هو مقلوب؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها؛ فهو كقولك: أدخلت في القَلَنْسُوة رأسي، ودخل الخفُّ في رجلي. وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي[1] ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسمَّ فاعله؛ أي فعمّاها الله عليكم؛ وكذا في قراءة أُبيّ «فعمَّاها» ذكرها الماورديّ. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قيل: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الهاء ترجع إلى الرحمة. وقيل: إلى البينة؛ أي أنلزمكم قبولها، وأُوجبها عليكم؟ وهو استفهام بمعنى الإنكار؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول أن يردّ عليهم. وحكى الكسائيّ والفرّاء «أَنُلْزِمُكُمُوهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفاً؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه، وأنشد:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستَحْقِبٍ إثْماً مِنَ اللَّهِ وَلاَ وَاغِلِ

وقال النحاس: ويجوز على قول يونس في غير القرآن أنلزمكمها يجري المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول: أنلزمكم ذلك. ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها. قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك[2].

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ، والدعاء إلى الله، والإيمان به أجراً أي: ﴿مَالاً﴾ فيثقل عليكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي ثوابي في تبليغ الرسالة. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به، كما سألت قريش النبيّ ﷺ أن يطرد الموالي والفقراء، حسب ما تقدّم «في الأنعام» بيانه؛ فأجابهم بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصام؛ أي لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازي من طردهم. ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في استرذالكم لهم، وسؤالكم طردهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ قال الفرّاء: أي يمنعني من عذابه. ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي لأجل إيمانهم. « أفلا تذَّكَّرون » أدغمت التاء في الذال. ويجوز حذفها فتقول: تَذَكَّرون.

قوله تعالى: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أخبر بتذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ، وأنه لا يدّعي ما ليس له من خزائن الله؛ وهي إنعامه على من يشاء من عباده؛ وأنه لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ. ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين. وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة». ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي تستقل وتحتقر أعينكم؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم. والدّال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تَزْتَرِي، ولكن التّاء تبدل بعد الزاي دالا؛ لأن الزّاي مجهورة والتّاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها. ويقال: أَزْرَيتُ عليه إذا عِبتَه. وزرَيتُ عليه إذا حقَّرته. وأنشد الفرّاء:

---

(١) قراءة متواترة.

(٢) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٢/ ٣٢) في تفسيره.

يُباعدهُ الصديقُ وتَزْدَريه حَليلتُهُ وينْهَرُه الصَّغيرُ

﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم. ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدّم ذكره. و «إذًا» ملغاة؛ لأنها متوسطة.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها. والجَدَل في كلام العرب المبالغة في الخصومة؛ مشتق من الجَدْل وهو شدّة القَتْل؛ ويقال للصقر أيضاً: أجْدَل لشدّته في الطّير؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»[1] بأشبع من هذا. وقرأ ابن عباس «فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا» ذكره النحاس. والجَدَل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قَبِله أنجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخَسِر. وأما الجدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل في صورة الحقّ فمذموم، وصاحبه في الدّارين ملوم. ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي من العذاب. ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في قولك.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ ﴾ أي إن أراد إهلاككم عذّبكم. ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين. وقيل: بغالبين بكثرتكم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا مَلَؤوا الأرض سهلاً وجبلاً على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ إي إبلاغي واجتهادي في إيمانكم. ﴿ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ أي لأنكم لا تقبلون نصحاً؛ وقد تقدّم في «براءة»[2] معنى النصح لغة. ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي يضلّكم. وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يَعصي العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يَغوي الغاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾. وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة» وغيرها. وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّنّاه في «الأعراف» في إغواء الله تعالى إيّاه حيث قال: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف: ١٦] ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام: ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون عُلُوّاً كبيراً. وقيل: ﴿ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ يهلككم؛ لأن الإضلال يُفضي إلى

---

(١) الآية (١٢١) من سورة الأنعام.

(٢) الآية (٩٢) من سورة التوبة.

الـهلاك. الطَّبريّ(١): ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾ يهلككم بعذابه؛ حكى عن طيء: أصبح فلان غاوياً أي مريضاً، وأغويته أهلكته؛ ومنه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فإليه الإغـواء، وإليه الـهداية. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تهديد ووعيد.

قولـه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون النبي ﷺ. افـترى افـتعل؛ أي اختلق القـرآن من قِبل نفسه، وما أخبر به عن نوح وقومه؛ قالـه مـقاتل. وقال ابن عباس: هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهـر؛ لأنه ليس قبلـه ولا بعـده إلا ذكر نوح وقـومه؛ فـالخطاب منهم ولـهم. ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي اختلقته وافـتعلته، يعني الوحي والرسالة. ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي عقاب إجرامي، وإن كنت مُحـقًّا فيما أقولـه فعليكم عـقاب تكذيبي. والإجرام مصدر أجـرم؛ وهو اقتراف السَّيئـة. وقيل المعنى: أي جزاء جُرْمي وكَسْبي. وجَرَم وأَجْرَم بمعنى؛ عن النحاس وغيره. قال:

طَرِيدُ عَشِيرةٍ ورَهِينُ جُرْمٍ بما جَرَمَتْ يَدِي وجَنَى لِسَانِي

ومن قرأ «أَجْرَامِي» بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم؛ وذكره النحاس أيضاً. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي من الكفر والتكذيب.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تـعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ «أنه» في موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسمَّ فـاعله. ويجوز أن يكون في موضع نصب، ويكون التـقدير بـ «أنه». و ﴿آمَنَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿يُؤْمِنَ﴾ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم، واستـدامة كفرهم، تحقيـقاً لنزول الوعيد بهم. قال الضـحاك: فدعـا عليهم لما أخـبر بهذا فـقال(٢): ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] الآيتين. وقيل: إن رجـلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتـفه، فلما رأى الصبي نـوحاً قال لأبيه: أعطني حجراً؛ فأعطاه حجراً، ورمى به نوحاً عـليه السلام فأدماه؛ فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾(٣). ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فلا تغتَمّ بهـلاكهم حتى تكون بائساً؛ أي حزيناً. والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر:

وكم مِن خليلٍ أو حميم رُزِئته فلم أبتئسْ والرُّزْءُ فيه جَلِيلُ

يقال: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه. والابتئاس حزن في استكانة.

قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي اعمل السـفينة لتـركبهـا أنت ومن آمن معك. ﴿أَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا وحيث نراك. وقـال الرّبيع بن أنس: بحفظنا إياك حـفظ من يَراك. وقال ابن عباس رضي الله عنهـما: بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها.

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٥).

(٢) الأثر ذكره الطبري (١٢/ ٣٦) في تفسيره.

(٣) ضعيف جـداً: ابن عساكر (٦٢/ ٢٤٧ـ ٢٤٨) مطولاً عن ابن عبـاس رضي الله عنهما بسند فيه إسـحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب.

ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى: ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٣] ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقد يرجع معنى الأعين في هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف؛ لا ربّ غيره[١]. وقيل: المعنى ﴿ أَعْيُنِنَا ﴾ أي بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه. وقيل: ﴿أَعْيُنِنَا﴾ أي بعلمنا؛ قاله مقاتل: وقال الضحاك وسفيان: ﴿ أَعْيُنِنَا ﴾[٢] بأمرنا. وقيل: بوحينا. وقيل: بمعونتنا لك على صنعها. ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أي على ما أوحينا إليك من صنعتها. ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي لا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم.

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ أي وطفق يصنع. قال زيد بن أسلم: مكث نوح ﷺ مائة سنة يَغرس الشّجر ويقطعها ويبسها، ومائة سنة يعملها. وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال: بلغني أن قوم نوح مَلَؤوا الأرض، حتى مَلَؤوا السّهل والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء؛ فمكث نوح يَغرس الشجر مائة عام لعمل السّفينة، ثم جمعها يبسها مائة عام، وقومه يسخرون؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان[٣]. وروي عن عمرو بن الحارث قال: عمل نوح سفينته ببقاع دمشق، وقطع خشبها من جبل لبنان. وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ: لما استنقذ الله سبحانه وتعالى مَن في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه. ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾؛ فاصنع الفلك قال: يا رب ما أنا بنجّار، قال: «بلى فإن ذلك بعيني» فأخذ القدوم فجعله بيده، وجعلت يده لا تُخطئ، فجعلوا يمرّون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبيّ صار نجّاراً؛ فعملها في أربعين سنة[٤].

وحكى الثّعلبيّ وأبو نصر القُشَيريّ عن ابن عباس قال: اتخذ نوح السفينة في سنتين. زاد

---

(١) بل نثبت له سبحانه (العين) كصفة خبرية أثبتها سبحانه لذاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى] مع إثبات الإحاطة، وهذا مذهب أهل السنة.

(٢) بل الجمع للتعظيم والله أعلم.

(٣) أثر مرسل: هذا عن إسناد زيد بن أسلم وهو تابعي ورواه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٦) مطولاً ومختصراً ولا يصح مثل هذا.

قلت: والآثار هنا كلها غريبة فكلها منقول عن الإسرائيليات ورواتها ومثل هذا لا يصح.

(٤) أحكام القرآن (٢/ ١٠٥٨) وهذا لا يصح أيضاً لأنه عن كعب الأحبار كما في تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٧).

الثّعلبيّ: وذلك لأنـه لم يعلم كيف صنعة الفلـك، فأوحى الله إليه أن اصنعـها كجُـؤْجُؤ[١] الطائر. وقال كعب: بناها في ثلاثين سنة، والله أعلم. المهدويّ: وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها. واختـلفوا في طولها وعرضها؛ فـعن ابن عباس رضي الله عنهما كان طولهـا ثلثمائة ذراع، وعرضها خـمسون، وسمكها ثلاثون ذراعاً؛ وكـانت من خشب السّاج[٢]، وكذا قال الكَلْـبيّ وقَتَادة وعِكْرمة كان طولها ثلثمائة ذراع، والذّراع إلى المَنْكِب. قـاله سلمان الفارسيّ. وقال الحسن البصريّ: إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع[٣]. وحكاه الثّعلبيّ في كتاب العرائس. وروى عليّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال: قـال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها، فـانطلق بهم حتى انتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كفّاً من ذلك التراب، قـال :أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسـوله أعلم. قال: هذا كعب حـام بن نوح قال: فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله فإذا هـو قائم ينفض التراب من رأسه، وقد شاب؛ فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا بل متُّ وأنا شابّ، ولكنني ظننت أنهـا الساعة فمن ثَمَّ شِبت. قال: أخبرنـا عن سفينة نوح؟ قال: كـان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضـها ستمـائة ذراع، وكانت ثلاث طبقـات، طبقة فـيها الدوابّ والوحش، وطبـقة فيهـا الإنس، وطبقة فـيها الطّيـر. وذكر باقي الخبر[٤] على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وقال الكَلْبيّ فيما حكاه النقاش: ودخل الماء فيها أربعة أذرع، وكـان لها ثلاثة أبواب؛ بـاب فيـه السبّـاع والطيـر، وباب فيـه الوحش، وباب فـيه الرجـال والنساء[٥]. ابن عبـاس جعلها ثلاث بطون؛ البـطن الأسفل للوحوش والسـباع والدواب، والأوسط للطعام والشـراب، وركب هو في البطن الأعلى، وحمل مـعه جسـد آدم عليه السـلام معتـرضاً بين الرجال والنساء، ثم دفنه بعدُ ببيت المـقدس؛ وكان إبليس معهم في الكَوْثَل[٦]. وقيل: جاءت الحيّة والعقرب لدخول السفينة فقال نوح: لا أحملكمـا؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء، فقالتا: احملنا فنحن

---

(١) جؤجؤ : صدر الطائر . قلت : وقد روي مثل هذا عن إسحاق بن بشر الكاهلي الكذاب عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا كله منقول عن سفر التكوين برمته ، وانظر مفاتيح الغيب (١٦/ ٥٢٤) فقال الرازي ـ رحمه الله : لا حاجة إلى معرفـتها (يعني الأخبار المتعلقة بالسـفينة) البتة ، ولا يتعلق بمعرفتهـا فائدة أصلاً ، وكان الخوض فيها من باب الفـضول لا سيما مع القطع بأنه ليس هاهنا ما يدل على الجانب الصـحيح ، والذي نعلمه أنه كان في السعة ـ أي الفلك ـ بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ، ولما يـحتاجون إليه ، الحصول زوجين من كل حيوان، لأن هذا القدر مذكور في القرآن فأما غير ذلك القدر فغير مذكور . ا هـ . وبه قال الآلوسي في روح المعاني .

(٢، ٣) انظر السابق .

(٤) خبر باطل : الطبري (١٢/ ٣٨) في تفسيره وفيه مفضل بن فضالة ضعيف كما في التقريب ، وفيه على بن زيد بن جدعان وهو صاحب مناكير .

(٥) الكلبي واه إذا أسند فكيف وقد تفرد ؟

(٦) باطل : الطبري (١٢/ ٣٩ـ٤٠) مطولاً ، وفـيه العلة قبل السـابقة مع ابن حميـد وهو ضعيف ، وفـيه عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس ، وفيه الحسن بن دينار ، قال النسائي : متروك .
وفيه سلمة بن الفضل الرازي صدوق كثير الخطأ .
والكوثل : مؤخرة السفينة ـ كما في اللسان ـ .

نضمن لك ألا نضرّ أحداً ذكَرك؛ فمن قرأ حين يخاف مَضَرَّتهما ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[1] [الصافات: ٧٩] لم تضرّاه؛ ذكره القشيريّ وغيره. وذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له مرفوعاً من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة»[2]. قوله تعالى:

﴿وَكُلَّمَا﴾ ظرف. ﴿مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾. قال الأخفش والكسائي يقال: سَخرتُ به ومنه. وفي سخريتهم منه قولان: أحدهما أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوّة نجاراً[3]. الثاني لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه[4]. قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة. ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ غداً عند الغرق. والمراد بالسخرية هنا الاستجهال؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا[5].

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تهديد، و ﴿مَن﴾ متصلة بـ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ و﴿تَعْلَمُونَ﴾ هنا من باب التعدية إلى مفعول؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب. ويجوز أن تكون ﴿مَن﴾ استفهامية؛ أي أيّنا يأتيه العذاب؟. وقيل: ﴿مَن﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿يَأْتِيهِ﴾ الخبر، و ﴿يُخْزِيهِ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾. وحكى الكسائي: أن أناساً من أهل الحجاز يقولون: سو تعلمون؛ وقال من قال: «ستعلمون» أسقط الواو والفاء جميعاً. وحكى الكوفيون: سفْ تعلمون؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي يجب عليه وينزل به. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ اختلف في التنور على أقوال سبعة، الأول: أنه وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً[6]، قاله ابن عباس وعكرمة والزّهري وابن عيينة؛ وذلك أنه قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك. الثاني: أنه تنور الخبز

---

(١) رواه ابن عساكر (٦٢/٢٥٧ـ٢٥٨) وهو باطل عن خالد.

(٢) باطل ولا يصح: ابن عساكر (٦٢/٢٥٦) وابن عدي (٢/ ٤٤٠) في ترجمة بشر بن نمير، وابن الجوزي (٣/ ١٦٨) في الموضوعات وقال: هذا حديث لا يصح، قال أحمد بن حنبل: بشر بن نمير ترك الناس حديثه وقال ابن حبان: والقاسم يروي المعضلات عن الصحابة (ا هـ).

(٣) ذكرت سابقا أنه عن كعب الأحبار ولا يصح والطبري (١٢/ ٣٩) عن عبيد بن عمير بسند فيه جهالة.

(٤) ضعيف: ذكره ابن جرير الطبري (١٢/ ٣٧ـ٣٨) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه وذكره أبو حيان (٥/ ١٢١) في البحر المحيط عن مقاتل وأخرجه ابن عساكر (٦٢/ ٢٤٨) في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما ولكن بسند فيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب.

(٥) هذا ضعيف ولا يصح، وقد سبق بنحوه، انظر المحرر الوجيز (٧/ ٢٩٠) لابن عطية.

(٦) رواه الطبري عن الضحاك عن ابن عباس ولم يسمع منه كما أن فيه العوام بن حوشب وهو مختلف فيه، الطبري (١٢/ ٤١ـ٤٢) وروى أيضا قول عكرمة.

الذي يخبـز فيه[١] ، وكان تنوراً من حجـارة؛ وكان لحوّاء حتى صار لنـوح؛ فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك. وأنبع الله المـاء من التنور، فعلمت به امرأته فقالت: يا نوح فار الماء من التنور؛ فـقال: جاء وعد ربي حقـاً. هذا قول الحسن[٢] ، وقاله مجـاهد وعطية عن ابن عباس. الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة؛ عن الحسن أيضاً. الرابع: أنه طلوع الفجر، ونور الصـبح؛ من قولهم: نوّر الفـجـر تنويراً؛ قاله عليّ بـن أبي طالب رضي الله عنه[٣]. الخامس: أنه مسـجد الكـوفة؛ قالـه عليّ بن أبي طالب أيضاً؛ وقـاله مجـاهد. قال مـجاهد: كـان ناحيـة التنور بالكوفة[٤]. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الدّاخل مما يلي كندة. وكان فوران الماء منه علماً لنوح، ودليلاً على هلاك قومه. قال الشاعر وهو أمية:

فار تنّورُهم وجاشَ بماءٍ صار فوق الجبالِ حتّى عَلاها

السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة منها[٥] ، قاله قتادة.

السابع: أنه العين التي بالجـزيرة «عين الوردة» رواه عكرمة. وقـال مقاتل: كـان ذلك تنور آدم، وإنما كان بالشام بموضع يقال له: «عين وَرْدَة»[٦] وقال ابن عباس أيضاً: فار تنور آدم بالهند[٧]. قال النحاس: وهذه الأقوال ليـست بمتناقضة؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جـاء من السماء والأرض؛ قال: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر: ١١]. فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان عـلامة. والفَوَران الغَلَيـان. والتنور اسم أعجميّ عـربته العرب، وهـو على بناء فَعَل؛ لأنّ أصل بنائه تَنّر، وليس في كـلام العرب نون قـبل راء. وقيل: مـعنى «فَارَ الـتَّنُّورُ» التمـثيل لحـضور العذاب؛ كقولهم: حمِي الوطيس إذا اشتـدت الحرب. والوطيس التنور. ويقال: فارت قِدر القوم إذا اشتد حربهم؛ قال شاعرهم:

تركتم قِدْرَكم لا شيءَ فيها وقِدْرُ القوم حاميةٌ تَفُورُ

قوله تـعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يعني ذكـراً وأنثى؛ لبقاء أصل النـسل بعد الطوفـان. وقرأ حـفص: «مِنْ كُلٍّ زَوْجَـيْنِ اثْنَيْنِ» بتنوين «كل» أي من كل شيء زوجين. والقـراءتان ترجعان إلى معنًى واحـد: شيء معه آخر لا يستغنى عنه. ويقـال للاثنين: هما زوجان، في كل اثنين لا يَستغني أحـدهما عن صاحبه؛ فإن العـرب تسمي كل واحد منهما زوجـاً. يقال: له زوجا نعلٍ إذا كان له نعلان. وكذلك عنده زوجا حمامٍ، وعليه زوجا قيود؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥]. ويقال للمرأة: هي زوج الرجل، وللرجل هو زوجهـا. وقد يقال للاثنين: هما

---

(١) رجحه الطبري (١٢/ ٤٣) في تفسيره وهو عن ابن عباس من طريق العوفيين. وفيه جهالة وضعف.

(٢) ضعيف: الطبري (١٢/ ١٤٣) ومثله لا يصح، وقول مجاهد هناك بسند صحيح إليه.

(٣) ضعيف: الطبري (١٢/ ٤٢) وفيه عبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث وهو ضعيف كما في التقريب.

(٤) ضعيف: السابق / نفسه، وفيه ليث بن أبي سليم، ضعيف.

(٥، ٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٨٠٨٠)، (١٢/ ٤٢).

(٧) موضوع: فيه أبو عمر الخزاز: متروك. انظر السابق (١٢/ ٤٣) قلت: ولا تصح هذه الأقوال ولا طائل من ورائها.

زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين، والصنفين، وكل ضرب يدعى زوجاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] أي من كلِّ لون وصنف. وقال الأعشى:

وكل زوجٍ من الدّيباجِ يَلْبَسه أبو قُدامة محبوٌّ بذاك مَعَا

أراد كل ضرب ولون. و ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ﴾ في موضع نصب بـ ﴿احْمِلْ﴾. ﴿اثْنَيْنِ﴾ تأكيد. ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ أي واحمل أهلك. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ . «مَن» في موضع نصب بالاستثناء. ﴿عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ منهم أي بالهلاك» وهو ابنه كنعان وامرأته وَاعِلَة كانا كافرين. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ قال الضحاك وابن جريج: أي احمل من آمن بي، أي من صدّقك؛ فـ «من» في موضع نصب بـ ﴿احْمِلْ﴾. ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: آمن مع نوح من قومه ثمانون إنساناً، منهم ثلاثة من بنيه؛ سام وحام ويافث، وثلاث كنائن[١] له. ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل. وورد في الخبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم[٢]، وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام امرأته في السفينة، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان. قال عطاء: ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيداً لولد سام ويافث[٣]. وقال الأعمش: كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين[٤]، وأسقط امرأة نوح. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعاً[٥]. و ﴿قَلِيلٌ﴾ رفع بآمن، ولا يجوز نصبه على الاستثناء؛ لأن الكلام قبله لم يتم، إلا أن الفائدة في دخول «إلا؛ و «ما » لأنك لو قلت: آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن؛ فإذا جئت بما وإلا، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۖ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أمر بالركوب؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن

---

(١) كنائن : جمع كنة بالفتح وهي امرأة الابن أو الأخ كما في اللسان ، رأيته عن الأعمش عند الطبري بلفظ (الكنائن) وبنحوه عن ابن عباس من طريق ابن جريج وهو منقطع بينهما ، انظر تفسير الطبري (١٢/ ٤٦) .

(٢) كذا عند الطبري عن ابن جريج معضلاً (١٢/ ٤٦) .

(٣) هذا أثر غريب عجيب ، وانظر الطبري (١٢/ ٤٦) عن ابن جريج معضلاً .

(٤) انظر ما قبل السابق .

(٥) معضل : الطبري (١٢/ ٣٩) في تفسيره عن ابن إسحاق معضلاً .

يكون من نوح لقومه. والركوب العلوّ على ظهر الشيء. ويقال: ركبه الدّيْن. وفي الكلام حذف؛ أي اركبوا الماء في السفينة. وقيل: المعنى اركبوها. و «في؛ للتـأكيد كقوله تعالى« إن كُنتُمْ للرُّؤيا تعبُرُونَ» [يوسف: ٤٣] وفائدة «في» أنهم أمروا أن يـكونوا في جوفها لا على ظهرها. قـال عكرمة: ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب، واستـوت على الجُوديّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قَـتَادة وزاد: وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه: من كان صـائماً فليتم صومه، ومن لم يكن صائـماً فليصـمه[١]. وذكر الـطبريّ في هذا حـديثاً عن النبيّ ﷺ أن نوحـاً ركب في السفينة أوّل يوم من رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بـهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أرست على الجوديّ، فصامـه نوح ومن معه[٢]. وذكر الطبريّ عن ابن إسحاق مـا يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، ومرت بالبـيت فطافت به سبعاً، وقد رفعه الله عن الغـرق فلم ينله غرق، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجوديّ فاستوت عليه[٣].

قولـه تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم اللـه إجـراؤها وإرساؤها؛ فمجراها ومرساها في مـوضع رفع بالابتداء؛ ويجوز أن تكون في مـوضع نصب، ويـكون التـقديـر: بسم اللـه وقت إجـرائهـا ثم حـذف وقت، وأقـيم «مجراها؛ مـقامه. وقرأ الأعـمش وحمزة والكسائي: «بِسمِ اللَّهِ مَـجْرِيهَا»[٤] بفتح الميم و «مُرْسَاهَا» بضم الميم. وروى يحيى بن عـيسى عن الأعمش عن يحـيى بن وثّاب «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَـرْسَاهَا؛ بفتح الميم[٥] فيهمـا؛ على المصدر من جَرت تَجري جرياً ومجَـرًى، ورَست رُسوّا ومَرْسًى إذا ثبتت. وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَريّ وأبو رَجاء العُطَارِديّ: «بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا» نعت للـه عـز وجل في موضع جـر. ويجوز أن يكون في مـوضع رفع على إضمـار مبـتدأ؛ أي هو مُجريها ومُرسيها. ويجوز النصب على الحال. وقال الضحّاك: كان نوح عليه السلام إذا قال بسم اللـه مَجراها جرت، وإذا قـال: بسم اللـه مَرساها رست[٦]. وروى مروان بن سالم عن طلحـة بن عبيد اللـه بن كَريز عن الحـسين بن عليّ عن النبي ﷺ قال: «أمَـانٌ لأمتي من الغرق إذا ركـبوا في الفلك بسم اللـه الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ

---

(١) مرسل ضعيف : فيه أبو جعفر الرازي سيئ الحفظ ، الطبري (١٢/ ٥٠) .

(٢) ضعيف : الطبري (١٢/ ٥٠) في تفسيره وفي إسناده عثمان بن مطر وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد (٣/ ٨٨) للهيثمي وضعفـه به ، ونراه للطبراني في المعجم الكبير عن عبد الغفور بن عـبد العزيز عن أبيه وقال الذهبي في الميزان (٢/ ٦٤١) :كان ممن يضع الحديث .
قلت : ولم يرد نص صحيح بهذا أبداً .

(٣) باطل : سبق أنه معضل عن ابن إسحاق ، وقـد رواه الطبري (١٢/ ٥٠) عن ابن جريج ، وقد روى هذا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قلت : فتندر به الإمام مالك حـتى قال لراويه : اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يحدثك عن أبيه عن نوح عليه السلام.
انظر التهذيب (٦/ ١٧٩) .

(٤، ٥) قراءتان متواترتان .

(٦) ضعيف : في إسناده جابر بن نوح وأبو رن وهما ضعيفان .

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١] ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل؛ كما بيّناه في البسملة، والحمد لله. ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لأهل السفينة. وروي عن ابن عباس قال: لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث؛ فقال نوح: لو غمزت ذنب هذا الخنزير ففعل، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها، فخرج منها سِنَّوران فأكلا الفأرة. ولما حمل الأسد في السفينة قال: يا رب من أين أطعمه؟ قال: سوف أشغله، فأخذته الحُمَّى؛ فهو الدهرَ محموم[٢]. قال ابن عباس: وأوّل ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزّة، وآخر ما حمل حمل الحمار؛ قال: وتعلق إبليس بذنبه، ويداه قد دخلتا في السفينة، ورجلاه خارجة بعد، فجعل الحمار يضطرب ولا يستطيع أن يدخل، فصاح به نوح: ادخل ويلك فجعل يضطرب؛ فقال: ادخل ويلك وإن كان معك الشيطان؛ كلمة زلّت على لسانه، فدخل ووثب الشيطان فدخل. ثم إن نوحاً رآه يغنّي في السفينة، فقال له: يا لعين ما أدخلك بيتي؟ قال: أنت أذنت لي؛ فذكر له؛ فقال له: قم فاخرج. قال: ما لك بدّ في أن تحملني معك؛ فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان، واحدة مكان الشمس، والأخرى مكان القمر[٣]. ابن عباس: إحداهما بيضاء كبياض النهار، والأخرى سوداء كسواد الليل؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات[٤].

قوله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ الموج جمع موجة؛ وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح. والكاف للتشبيه، وهي في موضع خفض نعت للموج. وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعاً. ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ قيل: كان كافراً واسمه كنعان. وقيل: يام. ويجوز على قول سيبويه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ بحذف الواو من﴿ ابْنَهُ ﴾ في اللفظ، وأنشد:

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صوتُ حادٍ

فأما ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ ﴾ فقراءة شاذّة، وهي مروية عن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعروة بن الزبير. وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد «ابنها؛ فحذف الألف كما تقول: ﴿ابْنَهُ﴾ فتحذف الواو. وقال النحاس: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه؛ لأن الألف

---

(١) ضعيف جداً : ابن السني (٥٠٠) في عمل اليوم والليلة وفيه جبارة بن المغلس ، ورواه عنه أبو يعلي كما في المجمع (١٠/١٣٢) قلت : وجبارة ضعيف ، ورواه الطبراني (١٢٦٦١) في الكبير عن طريق أخرى فيها نهشل ابن سعيد وهو متروك ، وفي سند أبي يعلى يحيي بن العلاء ، وفي الميزان للذهبي : هذا الحديث من مناكيره .

(٢، ٣، ٤) ضعيف : الطبري (١٢/٣٨) وفيها ضعفاء ، ومثل هذا لا يصح وقال ابن كثير (١/١٧٦) في البداية : وهذا أثر غريب جداً . قلتَ : ومثل هذا لا يصح أبداً فهو منقول عن الإسرائيليات ، فانظر الإسرائيليات والموضوعات ص٢٦ لأبي شهبة ، والجزء الثالث عن ابن عساكر (٦٢/٢٦١) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وجويبر تالف ، ضعيف بإسناده .

خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها. ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ أي من دين أبيه. وقيل: عن السفينة. وقيل: إن نوحاً لم يعلم أن ابنه كان كافراً، وأنه ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ وسيأتي. وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق؛ وقبل رؤية اليأس، بل كان في أوّل ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح. وقرأ عاصم: «يَا بُنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا؛ بفتح الياء، والباقون بكسرها[1]. وأصل «يا بنيّ؛ أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضاً أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضاً من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء. قال النحاس: أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف؛ قال النحاس: رأيت عليّ بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة. قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحداً من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحاق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفاً؛ قال الله عز وجل إخباراً: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ وكما قال الشاعر:

فيا عجبَا من رَحْلها المتحمَّلِ

فيريد يا بنيّا، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول: جاءني عبد الله في التثنية. والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف. والكسر على أن تحذف الياء للنداء. والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ أي أرجع وأنضم. ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أي يمنعني ﴿ مِنَ الْمَاءِ ﴾ فلا أغرق. ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي لا مانع؛ فإنه يوم حقّ فيه العذاب على الكفار. وانتصب ﴿ عَاصِمَ ﴾ على التبرئة. ويجوز ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ ﴾ تكون لا بمعنى ليس. ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأوّل؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج. ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصماً بمعنى معصوم؛ مثل: ﴿ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ أي مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

بطيءُ القيامِ رخيمُ الكلا مِ أمْسَى فؤادي به فَاتِنَا

أي مفتوناً. وقال آخر:

دَعِ المكارمَ لا تَنهضْ لبغيتها واقعدْ فإنَّك أنتَ الطاعمُ الكَاسِي

أي المطعوم المكسوّ. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون ﴿ مَن ﴾ في موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أي إلا الله. وهذا اختيار الطَّبَريّ. ويُحسّن هذا أنك لم تجعل عاصماً بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلاَّ» بمعنى «لكن». ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ يعني بين نوح وابنه. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ قيل: إنه كان راكباً على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى

(١) القراءة متواترة والله أعلم.

الماء جاء قال: يا أبت فار التنور، فقال له أبوه: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾ فما استتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق. وقيل: إنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصّن فيه من الماء، فلما فار التّنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوّط فيه ويبول حتى غرق بذلك. وقيل: إن الجبل الذي آوى إليه «طور سيناء» (١).

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ هذا مجاز لأنها موات. وقيل: جعل فيها ما تُميّز به. والذي قال: إنه مجاز قال: لو فُتّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة رصفها، واشتمال المعاني فيها. وفي الأثر: إن الله تعالى لا يخلي الأرض من مطر في عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه المَلَك. وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١] فجرت بهم السفينة إلى أن تناهي الأمر؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع. يقال: بلَع الماء يبلَعه مثل منع يمنع وبَلِع يبلَع مثل حَمِد يحمَد؛ لغتان حكاهما الكسائيّ والفرّاء. والبالُوعة الموضع الذي يشرب الماء. قال ابن العربي: التقى الماءان على أمر قد قدر، ما كان في الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتصّ الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ وقيل: ميّز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته، وصار ماء السماء بحاراً.

قوله تعالى: ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ أي نقص؛ يقال: غاض الشيءُ وغِضته أنا؛ كما يقال: نَقَص بنفسه ونَقَصه غيره، ويجوز «غيض» بضم الغين. ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي أحكم وفرغ منه؛ يعني أهلك قوم نوح على تمام وإحكام. ويقال: إن الله تعالى أعقم أرحامهم أي أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير. والصحيح أنه أهلك الوِلدان بالطّوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم. وحكي أنه لما كثر الماء في السّكك خشيت أمّ صبيّ عليه؛ وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء استوت على الجبل؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها الماء؛ فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبي.

قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي هلاكاً لهم. الجُوديّ جبل بقرب المَوْصل؛ استوت عليه في العاشر من المحرّم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه، شكراً لله تعالى؛ وقد تقدّم هذا المعنى. وقيل: كان ذلك يوم الجمعة. وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت، وبقي الجُوديّ لم يتطاول تواضعاً لله، فاستوت السّفينة عليه: وبقيت عليه أعوادها. وفي الحديث أن

(١) كلام لا ينطلي على أحد وهو منقول عن سقمة بني إسرائيل ولم أجده مسنداً، ولا معزواً إلى أحد.

النبيّ ﷺ قال: «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة»[١]. وقال مجاهد: تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً، وتطامن الجوديّ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه[٢]. وقد قيل: إن الجوديّ اسم لكل جبل؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل:

سُبحانه ثُمّ سُبحاناً يَعودُ لَه وقَبْلَنا سَبَّحَ الجُوديُّ والجَمَدُ

ويقال: إن الجُوديّ من جبال الجنة؛ فلهذا استوت عليه. ويقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجوديّ بنوح، وطور سيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

مسألة: لما تواضع الجوديّ وخضع عزّ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذَلّ، وهذه سُنّة الله في خلقه، يرفع من تخشّع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل:

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تَخشُّعاً منّا إليكَ فعزُّها في ذُلّها

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كانت ناقة للنبي ﷺ تُسمَّى العَضْباء؛ وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابيّ على قعود له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِقت العضباء فقال رسول الله ﷺ: «إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»[٣]. وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصت صدقةٌ من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٤]. وقال ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يَبغِي أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد»[٥]. خرجه البخاريّ.

مسألة: نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة. ذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له عن الحسن: أن نوحاً أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ [العنكبوت: ١٤]. وكان قد: كثرت فيهم المعاصي، وكثرت الجبابرة وعَتَوْا عُتُوّا كبيراً، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرّا وعلانية، وكان صبوراً حليماً، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقي نوح؛ فكانوا يدخلون عليه فيخنقونه حتى يترك وَقِيذاً، ويضربونه في المجالس ويطرد؛ وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فراراً منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلفّ رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه، فذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ**﴾[٦] [نوح: ٧]. وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى

---

(١) ليس هذا بالحديث المرفوع، وإنما ذكره ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣٧) في تفسيره عن قتادة، وزاد السيوطي (٤/ ٧٦) في الدر عزوه لأبي الشيخ.

(٢) صحيح إليه: الطبري (١٢/ ٥١).

(٣) صحيح: البخاري (٢٨٧٢) في الجهاد ولم يروه مسلم ـ رحمه الله.

(٤) صحيح: مسلم (٢٥٨٨) في البر والصلة.

(٥) صحيح: مسلم (٢٨٦٥) في الجنة وليس عند البخاري ـ رحمه الله.

(٦) مرسل: ابن عساكر (٦٢/ ٢٤٠).

يغشى عليه فإذا أفاق قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(١). وقال ابن عباس: إن نوحاً كان يضرب ثم يُلفّ في لِبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يا بُنيّ انظر هذا الشيخ لا يغرّنك، قال: يا أبت أمكنّي من العصا، فأمكنه فأخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضِحة في رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: ﴿ربّ قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين؛ فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن؛ قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ؛ أي لا تحزن عليهم. ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] قال: يا رب وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر. قال: فَغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجفّفها: فقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنَبه كذنَب الديك؛ واجعلها مطبقة واجعل لها أبواباً في جنبها، وشدّها بدُسُر، يعني مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ. قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأوّل، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما، وجعل أولاد آدم أربعين رجلاً وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذّر معه في الباب الأعلى لضعفها ألا تطأها الدوابّ.

قال الزُّهريّ: إن الله عز وجل بعث ريحاً فحمل إليه من كل زوجين اثنين؛ من السباع والطير والوحش والبهائم(٢). وقال جعفر بن محمد: بعث الله جبريل فحشرهم، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة. وقال زيد بن ثابت: «استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده في ذنبها؛ فمن ثَم انكسر ذنبها فصار مَعْوفاً وبدا حَياؤها. ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياؤها(٣) قال إسحاق: أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحاً حمل أهل السفينة، وجعل فيها من كل زوجين اثنين، وحمل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة في السفينة قبل أن تظهر الأرض، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكاناً، فلم يجد طيناً ولا تراباً، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه، فذلك الريش الناتئ في قفا الهدهد موضع القبر، فلذلك نتأت أقفية الهداهد(٤). وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) ضعيف للإرسال: وفيه جهالة المحدث عن عبيد، والمحدث عن المجهول هو ابن إسحاق وقد عنعنه ولا يصح.

(٢) موضوع: ابن عساكر (٦٢/ ٢٤٧ـ ٢٤٨) في تاريخه بسند فيه إسحاق بن بشير الكاهلي.

(٣) هذا مرسل بل معضل ولا يصح.

(٤) هذا قول إسحاق بن بشر الكاهلي الكذاب صاحب كتاب المبتدأ وانظر الدر المنثور (٣/ ٥٣) وانظر ابن عساكر (٦٢/ ٢٦١).

«كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة»[١].

وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره: أن نوحاً عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدّجاج: أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها: أنت مختومة بخاتمي لا تطيري أبداً، أنت ينتفع بك أمتي؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه، ولذلك يقتل في الحل والحَرَم ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت. وبعث الحمامة فلم تجد قراراً فوقعت على شجرة بأرض سيناء فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرم، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاختضبت رجلاها، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت: بشراي منكَ أن تهب لي الطوق في عنقي، والخِضاب في رجلي، وأسكنُ الحرَمَ؛ فمسح يده على عنقها وطوقها، ووهب لها الحمرة في رجليها، ودعا لها ولذريتها بالبركة. وذكر الثعلبيّ أنه بعث بعد الغراب التُّدْرُج[٢] وكان من جنس الدّجاج؛ وقال: إياك أن تعتذر، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع، وأخذ أولاده عنده رهناً إلى يوم القيامة[٣].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ**﴾ أي دعاه. ﴿**فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**﴾ أي من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم منَ الغرق؛ ففي الكلام حذف. ﴿**وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ**﴾ يعني الصدق. وقال علماؤنا: وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله: ﴿**وَأَهْلَكَ**﴾ وترك قوله: ﴿**إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾ فلما كان عنده من أهله قال: ﴿**رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**﴾ يدلّ على ذلك قوله: ﴿**وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾ أي لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمناً في ظنه، ولم يك نوح يقول لربه: ﴿**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**﴾ إلا وذلك عنده كذلك؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم؛ وكان ابنه يُسرّ الكفر ويظهر الإيمان؛ فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب؛ أي علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت. وقال الحسن: كان منافقاً؛ ولذلك استحل نوح أن يناديه. وعنه أيضاً: كان ابن امرأته؛ دليله قراءة عليّ «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهَا». ﴿**وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**﴾ ابتداء وخبر. أي حكمت على قوم

(١) موضوع: السابق وعزاه لإسحاق بشر وهو كذاب وعزاه موقوفاً، لجعفر بن محمد فعزاه لأبي الشيخ.

(٢) التدرج: طائر يغرد بأصوات حسنة في البساتين وموطنه بلاد فارس ـ نقلاً عن حياة الحيوان للدميري.

(٣) هذا باطل: ونقله الثعلبي والله يعلم مدى ضعف مروياته.

بالنجاة، وعلى قوم بالغرق.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم[١] قاله سعيد بن جُبير. وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك[٢] فهو على حذف مضاف؛ وهذا يدلّ على أن حكم الاتفاق في الدِّين أقوى من حكم النسب. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ ابن عباس وعُروة وعِكرمة ويعقوب والكسائيّ «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ»[٣] أي من الكفر والتكذيب؛ واختاره أبو عبيد. وقرأ الباقون «عَمَلٌ» أي ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف؛ قاله الزجاج وغيره. قال:

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتَّى إذا ادَّكَرتْ ... فَإنما هي إقبالٌ وإدبار

أي ذات إقبال وإدبار. وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد. ويجوز أن تكون الهاء للسؤال؛ أي إن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح. قاله قتادة[٤]. وقال الحسن: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه. وكان لغير رِشْدَة، وقاله أيضاً مجاهد[٥]. قال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه؛ قلت: إن الله أخبر عن نوح أنه قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال: لم يقل مني، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر؛ فقلت له: إن الله حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ ولا يختلف أهل الكتابين أنه ابنه؛ فقال الحسن: ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب إنهم يكذبون[٦]. وقرأ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾. وقال ابن جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان ولد على فراشه، وكانت امرأته خانته فيه[٧]؛ ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾. وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبيّ قط[٨]، وأنه كان ابنه لصُلْبه. وكذلك قال الضّحاك وعكرمة وسعيد بن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم، وأنه كان ابنه لصُلْبه[٩]. وقيل لسعيد بن جُبير: يقول نوح: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبّح اللّهَ طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله يحدث الله محمداً ﷺ أنه ابنه،

---

(١) رواه الطبري من قتادة وعكرمة وابن عباس والضحاك (١٢/٥٦).

(٢) السابق / نفسه.

(٣) روى الإمام أحمد (٦/٢٩٤) هذه القراءة عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وشهر مختلف فيه وقال الطبري (١٢/٥٧): ولا نعلم هذه القراءة قرأ بها أحدٌ من قرأة الأمصار إلا بعض المتأخرين، واعتل في ذلك بخبر روى عن رسول الله ﷺ أنه قرأ ذلك كذلك غير صحيح السند، وذلك حديث روى عن شهر بن حوشب فمرة يقول عن أم سلمة، ومرة يقول عن أسماء بنت يزيد، ولا نعلم لشهر سماعا يصح عن أم سلمة .ا هـ.
قلت: وروى أبو داود (٣٩٨٢) الحديث في الحروف والقراءات عن شهر عن أسماء وصححه الألباني هناك.
وعن شهر عن أم سلمة (٣٩٨٣) والترمذي (٢٩٣١) في القراءات.

(٤) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٢/٥٧) في تفسيره.

(٥) هذا غير صحيح أبداً: وقد كذبه ابن عباس رضي الله عنهما، كما روى عنه بإسناد حسن عند الطبري (١٢/٥٥) فقال: «ما بغت امرأة نبي قط». وبه قال الضحاك.

(٦) صحيح الإسناد لكنه باطل: الطبري (١٢/٥٣).

(٧) لا يصح: انظر السابق وما قبله.

(٨) حسن: انظر ما قبل تخريجين.

(٩) الطبري (١٢/٥٤ـ٥٥).

وتقول إنه لـيس ابنه نعم كان ابنه؛ ولكن كـان مخالـفاً في النية والعـمل والدِّين(١)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ؛ وهذا هو الصحيح في الباب إن شـاء الله تعالى لجلالة من قال به، وإن قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ليس مما ينفي عنه أنه ابنه. وقـوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ يعني في الدِّين لا في الفِراش، وذلك أن هذه كانت تخـبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينـصرك ربك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التّنور؛ فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التّنور، فهذه خيانتها. وخيانة الأخرى أنها كانت تدلّ على الأضياف على ما سيـأتي إن شاء الله. والله أعلم. وقيل: الولد قـد يسمى عملاً كمـا يسمى كَسْبـاً، كما في الخبر: «أولادكم من كَسْبكم»(٢). ذكره القشيريّ.

الثالثة: في هذه الآية تسلية للخلق في فسـاد أبنائهم وإن كانوا صالحين. وروي أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمـام قد غطّاه، قال: فعلم مالك أنه قد فهمـه الناس؛ فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات. وفيها أيضاً دليل على أن الابن من الأهل لغـة وشرعاً، ومن أهل البـيت؛ فمن وصّى لأهله دخل في ذلك ابنه، ومـن تضمنه منزلُه، وهو في عياله. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٦] فسمى جميع من ضمه منزله من أهله.

الرابعة: ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما: أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذاً بظاهر الفراش. وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول: نرى رسول الله ﷺ إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام؛ ذكره أبو عمر في كتاب «التمهـيد». وفي الحديث الصحـيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الولدُ للفراش وللعـاهر الحَجَر»(٣) يريد الخيـبة. وقـيل: الرّجم بالحجـارة. وقرأ عُروة بن الزّبيـر. «ونَادَى نُوحٌ ابْنَهَا» يريد ابـن امرأته، وهي تفسيـر القراءة المتقدّمة عنه، وعن عليّ رضي الـله عنه، وهي حجة للحسن ومجـاهد؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لها. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي أنهاك عن هذا السـؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كـراهية أن تكون من الجاهلين؛ أي الآثمين. ومنه قـوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] أي يحذركم الله وينهـاكم. وقيل: المعنى أرفعك أن تكون من الجـاهلين. قال ابن العربي: وهـذه زيادة من الله وموعظة يرفع بهـا نوحاً عن مقـام الجاهلين، ويعليـه بها إلى مـقام العلماء والـعارفين؛ فـ ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السـلام، فشكر الله تذلله وتواضعه. ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط من السؤال. ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ أي بالتوبة. ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي أعمالاً. فقال: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا﴾.

---

(١) وهذا الصحيح : الطبري (١٢/ ٥٤ـ٥٥) ورواه أيضا عن عكرمة به .

(٢) صحيح : وقد سبق .

(٣) صحيح : البخاري (٢٠٥٣) في البيوع مطولاً ، وفي الحدود (٨٦١٨) ومسلم (١٤٥٨) في الرضاع .

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي قالت له الملائكة، أو قال الله تعالى له: اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض؛ فقد ابتلعت الماء وجفّت. ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي بسلامة وأمن. وقيل: بتحية. ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أي نعم ثابتة؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته. ومنه البِركة لثبوت الماء فيها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته؛ على قول قَتَادة وغيره، حسب ما تقدّم؛ وفي التنزيل ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ قيل: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة. ودخل في قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة؛ رُوي ذلك عن محمد بن كعب[1]. والتقدير على هذا: وعلى ذرية أمم ممن معك، وذرية أمم سنمتعهم. وقيل: «من» للتبعيض، وتكون لبيان الجنس. ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ارتفع ﴿وَأُمَمٌ﴾ على معنى وتكون أمم. قال الأخفش سعيد كما تقول: كلمت زيداً وعمرو جالس. وأجاز الفراء في غير القراءة وأمماً، وتقديره: ونمتّع أمماً. وأعيدت «على» مع «أُمَمٌ» لأنه معطوف على الكاف من ﴿عَلَيْكَ﴾ وهي ضمير المجرور، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره. وقد تقدّم في «النساء» بيان هذا مستوفى في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] بالخفض. والباء في قوله: ﴿بِسَلَامٍ﴾ متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال؛ أي اهبط مسلّماً عليك. و﴿مِّنَّا﴾ في موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ متعلق بما تعلق به ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف. و«من» في قوله: ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ متعلق بمحذوف؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم. و﴿مَّعَكَ﴾ متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة ﴿مَّن﴾ أي ممن استقر معك، أو آمن معك، أو ركب معك.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي تلك الأنباء، وفي موضع آخر «ذلك» أي ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك. ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي لتقف عليها. ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان، والمجوس الآن ينكرونه. ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ خبر أي مجهولة عندك وعند قومك. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وإذاية القوم كما صبر نوح. وقيل: أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان فإنه على الجملة. ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من أذى العرب الكفار، كما صبر نوح على أذى قومه. ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في

(١) ضعيف جداً: فيه موسى بن عبيدة الرَّبذي ـ ضعيف ورواه الطبري (١٢/ ٥٩) في تفسيره.

الدنيا بالظَّفر، وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا، فهو معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم؛ كما تقول: يا أخا تميم. وقيل: إنما قيل له: أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم؛ وقد تقدّم هذا في «الأعراف»(١) وكانوا عبدة الأوثان. وقيل: هم عادان، عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧] وعاد اسم رجل ثم استمرّ على قوم انتسبو إليه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ بالخفض على اللفظ، و«غيره» بالرفع على الموضع، و«غيرَه» بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي ما أنتم في اتخاذكم إلهاً غيره إلا كاذبون عليه جلّ وعزّ.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ تقدّم معناه. والفِطرة ابتداء الخلق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ تقدّم في أوّل السورة. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة. ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أي يرسل السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً؛ والعرب تحذف الهاء في مِفعال على النسب، وأكثر ما يأتي مِفعال من أفعل، وقد جاء هاهنا من فَعل؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهي مدرار. وكان قوم

(١) انظر الآية (٦٩) من سورة الأعراف.

هود أعني عاداً أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن كما تقدّم في «الأعراف». ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ عطف على يرسل. ﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ قال مجاهد: شدّة على شدّتكم[١]. الضحاك: خصباً إلى خصبكم[٢]. علي بن عيسى: عزاً على عزّكم. عكرمة: ولداً إلى ولدكم. وقيل: إن الله حبس عنهم المطر وأعقم الأرحام ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود: إن آمنتم أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد؛ فتلك القوّة. وقال الزجاج: المعنى يزدكم قوّة في النِّعم. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي حجة واضحة. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إصراراً منهم على الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أي أصابك. ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ أي أصنامنا. ﴿بِسُوءٍ﴾ أي بجنون لسبِّك إياها[٣]، عن ابن عباس وغيره. يقال: عراه الأمر واعتراه إذا ألَمَّ به. ومنه ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦]. ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أي على نفسي. ﴿وَاشْهَدُوا﴾ أي وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة، ولكنه نهاية للتقرير؛ أي لتعرفوا ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي من عبادة الأصنام التي تعبدونها. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري. ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تؤخرون. وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى. وهو من أعلام النبوّة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: «فكيدُوني جَميعاً». وكذلك قال النبي ﷺ لقريش. وقال نوح ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[يونس: ٧١] الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ﴾ أي نفس تدب على الأرض؛ وهو في موضع رفع بالابتداء. ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أي فلا تصلون إلى ضري. وكل ما فيه رُوح يقال له دابّ ودابّة؛ والهاء للمبالغة. وقال الفراء: مالكها، والقادر عليها. وقال القتبيّ: قاهرها؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه. وقال الضحّاك: يحييها ثم يميتها؛ والمعنى متقارب. والناصية قُصاص الشّعر في مقدم الرأس. ونَصوتُ الرجل أنصوه نَصْواً أي مددت ناصيته. قال ابن جريج: إنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلّة والخضوع؛ فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء. وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخراً عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه في كلامهم. وقال الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد، ثم نظر إليها، ثم خلق خلقه، وقد نفذ بصره في جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة في نواصيهم فذلك النور آخذ بنواصيهم، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير. وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؛ رواه عبد الله بن عمرو بن

---

(١) صحيح إلى مجاهد: الطبري (١٢/ ٦٢).

(٢) انظر البحر المحيط (٥/ ٢٣٢) لأبي حيان.

(٣) ضعيف: الطبري (١٢/ ٦٣) في تفسيره من طريق العوفيين.

العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»(١). ولهذا قويت الرسل وصاروا من أولي العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظّا من الملاحظة أقواهم في العزم، ولذلك ما قوي هود النبي ﷺ حتى قال: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ . وإنما سمّيت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حيّا في جبهته بين عينيه، فسُمّي ذلك الموضع منه ناصية؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدّر؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها. ووصف ناصية أبي جهل فقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦] يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة؛ فعلى سبيل ما تأوّلوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ. والله أعلم. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال النحاس: الصّراط في اللغة المنهاج الواضح؛ والمعنى أن الله جلّ ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق. وقيل: معناه لا خَلَل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التاء لاجتماع تاءين. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ ﴾ مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم ﴾. وروي عن حفص عن عاصم «وَيَسْتَخْلِفْ» بالجزم حملاً على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ أي بتوليكم وإعراضكم. ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي لكل شيء حافظ. ﴿ عَلَىٰ ﴾ بمعنى اللام؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا بهلاك عاد. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ لأن أحداً لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت له أعمال صالحة. وفي صحيح مسلم والبخاريّ وغيرهما عن النبي ﷺ: «لن يُنجي أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يَتغمّدني الله برحمة منه»(٢). وقيل: معنى﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ بأن بيّنا لهم الهدى الذي هو رحمة. وكانوا أربعة آلاف. وقيل: ثلاثة آلاف. ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي عذاب يوم القيامة. وقيل: هو الريح العقيم كما ذكر الله في «الذاريات» وغيرها وسيأتي. قال القُشيريّ أبو نصر: والعذاب الذي يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم لا يبعد أن يبتلي الله نبياً وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصاً للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به.

---

(١) صحيح : مسلم (٢٦٥٣) في القدر .

(٢) صحيح : البخاري (٦٤٦٣) في الرقاق ، مسلم (٢٨١٦) في صفات المنافقين عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر. وحكى الكسائيّ أن من العرب من لا يصرف «عاداً» فيجعله اسماً للقبيلة. ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي كذّبوا بالمعجزات وأنكروها. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعني هوداً وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه. ونظيره قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] يعني النبي ﷺ وحده؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه؛ وإنما جمع هاهنا لأن من كذّب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل. وقيل: عصوا هوداً والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل. ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي اتبع سقّاطُهم رؤساءهم. والجبار المتكبر. والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عبيد: العنيد والعَنود والعانِد والمعاند المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعرق الذي ينفجر بالدم عانِد. وقال الراجز:

إنّي كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدَا

قوله تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي ألحقوها. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾. ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ قال الفرّاء: أي كفروا نعمة ربهم؛ قال: ويقال كفرته وكَفَرْتُ به، مثل شكرته وشكرت له. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أي لا زالوا مبعدين عن رحمة الله. والبعد الهلاك. والبُعد التّباعد من الخير. يقال: بَعُدَ يَبعُد بُعْداً إذا تأخر وتباعد. وبَعِد يبعَد بَعَداً إذا هلك؛ قال:

لا يَبعَدَنْ قومي الذين هُمُ سَمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

وقال النابغة:

فلا تَبعَدَنْ إنّ المنيةَ مَنهَلٌ وكل امرئ يوماً به الحالُ زائلُ

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أي في النسب. ﴿صَالِحًا ﴾. وقرأ يحيى بن وثّاب «وَإِلَى ثَمُودٍ» بالتنوين في كل القرآن؛ وكذلك روي عن الحسن. واختلف سائر القرّاء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع. وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث. قال النحاس: الذي قال أبو عبيدة رحمه الله من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثموداً يقال له حيّ؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة، بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبويه. والأجود عند سيبويه فيما لم يقُل فيه بنو فلان الصرف؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة في ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى. والتأنيث جيد بالغ حسن. وأنشد سيبويه في التأنيث:

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سَمَاحةً وكَفَى قريشَ المعضِلاتِ وسادَهَا

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدّم. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أي ابتدأ خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم في «البقرة» و«الأنعام» وهم منه. وقيل: أنشأكم في الأرض. ولا يجوز إدغام الهاء من ﴿غَيْرُهُ﴾ في الهاء من «هو» إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج. ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عُمّارها وسكّانها. قال مجاهد: ومعنى ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أعمركم [1] من قوله: «أعْمر فلان فلاناً داره» فهي له عُمْرى. وقال قَتَادة: أسكنكم فيها؛ وعلى هذين القولين تكون استفعل بمعنى أفعل؛ مثل استجاب بمعنى أجاب. وقال الضّحاك: أطال أعماركم [2]، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف. ابن عباس: أعاشكم فيها. زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار [3]. وقيل: المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها.

الثالثة: قال ابن العربيّ [4] قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضي أبو بكر: تأتي كلمة استفعل في لسان العرب على معان: منها: استفعل بمعنى طلب الفعل كقوله: استحملته أي طلبت منه حملاناً؛ وبمعنى اعتقد، كقولهم: استسهلت هذا الأمر اعتقدته سهلاً، أو وجدته سهلاً، واستعظمته أي اعتقدته عظيماً ووجدته؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت، كقولهم: استجدته أي أصبته جيداً، ومنها بمعنى فَعل؛ كقوله: قرّ في المكان واستقرّ؛ وقالوا وقوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ منه؛ فقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته واستسهلته؛ أي أصبته جيداً وسهلاً، وهذا يستحيل في الخالق، فيرجع إلى أنه خلق؛ لأنه الفائدة، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازاً؛ ولا يصح أن يقال: إنه طلبٌ من الله تعالى لعمارتها، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه، أما إنه يصح أن يقال: أنه استدعى عمارتها فإنه جاء بلفظ استفعل، وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمراً، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى رغبة.

قلت: لم يذكر استفعل بمعنى أفعل، مثل قوله: استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه وهي:

الرابعة: ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في «البقرة» [5] في السُّكنى والرُّقْبى. وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقباً فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته هذا قول القاسم ابن محمد ويزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول. الثاني: أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثّوري والحسن بن حيّ وأحمد بن حنبل وابن شُبْرمة وأبي عُبيد؛

(١) صحيح إلى مجاهد: الطبري (١٢/٦٦) في تفسيره.
(٢) البحر المحيط (٥/٢٣٨) لأبي حيان.
(٣) انظر السابق / نفسه.
(٤) أحكام القرآن (٣/١٠٥٩) لابن العربي المالكي.
(٥) انظر الآية (٣٥) من سورة البقرة.

قالوا: من أعمر رجلاً شيئاً حياته فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطي الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «العمرى جائزة»(١). و«العمرى لمن وُهبت له»(٢). الثالث: إن قال: عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأوّل: وإن قال: لعقبك كان كالقول الثاني؛ وبه قال الزهريّ وأبو ثور وأبو سلَمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد رُوي عن مالك؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ. والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر؛ إن كان المُعْمِر حيّا، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته، وأولى الناس بميراثه. ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة. وقد قال مالك في الحبس أيضاً: إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه. وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العُمْرى قياساً، وهو ظاهر الموطأ. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ أعْمر رجلاً عُمْرى له ولعقبه فقال: قد أعطيتُكَها وعقبَك ما بقي منكم أحد فإنها لمن أعطِيها وأنها لا ترجع إلى صاحبها من أجلِ أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث»(٣). وعنه قال: إن العمرى التي أجاز رسول الله ﷺ أن يقول: هي لك ولعقبك، فأما إذا قال: هي لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها (٤) قال مَعْمَر: وبذلك كان الزّهري يفتي.

قلت: معنى القرآن يجري مع أهل القول الثاني؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنى أعمركم؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ وبالعكس الرجل الفاجر؛ فالدنيا ظرف لهما حياة وموتاً. وقد يقال: إن الثناء الحسن يجري مجرى العقب. وفي التنزيل: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي ثناء حسناً. وقيل: هو محمد ﷺ. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] وقال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام. ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إلى عبادته. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي قريب الإجابة لمن دعاه. وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ القولُ فيه.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي

(١) صحيح: البخاري (٢٦٢٦) في الهبة، مسلم (١٦٢٦/٣٢) في الهبات عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: البخاري (٢٦٢٥) بنحوه في الهبة، مسلم (١٦٢٥/٢٥) في الهبات بلفظه.
(٣) صحيح: مسلم (١٦٢٥) في الهبات.
(٤) صحيح: مسلم (١٦٢٥/٢٣) في الهبات.

دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل هذا؛ أي قبل دعوتك النبوّة. وقيل: كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا: انقطع رجاؤنا منك. ﴿أَتَنْهَانَا ﴾ استفهام معناه الإنكار. ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ أي عن أن نعبد. ﴿ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فأن في محل نصب بإسقاط حرف الجر. ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ ﴾ وفي سورة «إبراهيم» «وَإِنَّا » والأصل وإنّنا؛ فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة. ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَنَا﴾ الخطاب لصالح، وفي سورة «إبراهيم؛ ﴿ تَدْعُونَنَا ﴾ لأن الخطاب للرسل صلوات الله وسلامه عليهم ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة. قال الهذلي:

كنتُ إذا أتوتُهُ من غَيْبِ يَشُمُّ عِطْفِي ويَبُزُّ ثَوْبِي
كأنّما أربتُه بِرَيْبِ

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ تقدّم معناه في قول نوح. ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه النفي؛ أي لا ينصرني منه إن عصيته أحد. ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي تضليل وإبعاد من الخير؛ قاله الفرّاء. والتخسير لهم لا له ﷺ؛ كأنه قال: غير تخسير لكم لا لي. وقيل: المعنى ما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر. ﴿لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه في «هَذِهِ ». وإنما قيل: ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل على ما طلبوا على أنهم يؤمنون. وقيل: أخرجها من صخرة صمّاء منفردة في ناحية الحجر يقال لها: الكاثبة، فلما خرجت الناقة على ما طلبوا قال لهم نبي الله صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ . ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه؛ وحذفت النون من ﴿ فَذَرُوهَا ﴾ لأنه أمر. ولا يقال: وَذَرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذّاً. وللنحويين فيه قولان؛ قال سيبويه: استغنوا عنه بتَرْكَ. وقال غيره: لما كانت الواو ثقيلة وكان في الكلام فِعل بمعناه لا واو فيه ألغوه؛ قال أبو إسحاق الزّجاج: ويجوز رفع «تَأكل » على الحال والاستئناف. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ جزم بالنهي. ﴿بِسُوءٍ﴾ قال الفرّاء: بعَقْر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهي. ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي قريب من عَقْرِها.

قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ .

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين.

وقد تقدّم الكلام في عقرها في «الأعراف»[١]. ويأتي أيضاً. ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا﴾ أي قال لهم صالح تمتعوا؛ أي بنعم الله عزّ وجلّ قبل العذاب. ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أي في بلدكم، ولو أراد المنزل لقال في دوركم. وقيل: أي يتمتع كل واحد منكم في داره ومسكنه؛ كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧] أي كل واحد طفلاً. وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميّت لا يتلذذ ولا يتمتع بشيء؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثاً على ما تقدّم في «الأعراف» فاصفرّت ألوانهم في اليوم الأول، ثم احمرّت في الثاني، ثم اسودّت في الثالث، وهلكوا في الرابع؛ وقد تقدّم في «الأعراف».

الثانية: استدلّ علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدّم في «النساء»[٢] ما للعلماء في هذا.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير كذب. وقيل: غير مكذوب فيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ تقدّم. ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ؛ أي من فضيحته وذلّته. وقيل: الواو زائدة؛ أي نجيناهم من خزي يومئذ. ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع «لما» و«حتى»؛ لا غير. وقرأ نافع والكسائيّ «يَوْمَئِذ» بالنصب. الباقون بالكسر على إضافة «يوم» إلى «إذ». وقال أبو حاتم: حدّثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ» أدغم الياء في الياء، وأضاف، وكسر الميم في «يومئذ». قال النحاس: الذي يرويه النحويون مثل سيبويه ومن قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا الإخفاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز، لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز كسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي في اليوم الرابع صيح بهم فماتوا؛ وذَكّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد. قيل: صيحة جبريل. وقيل: صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا. وقال هنا: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وقال في «الأعراف» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وقد تقدّم بيانه هناك. وفي التفسير: أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض: ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتة؟ قالوا: فما نصنع؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم، وكانوا فيما يقال اثني عشر ألف قبيلة، في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل، فوقفوا على الطرق والفجاج، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملَك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها، فأدناها من رؤوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم. وجعل الماء يتفوّر من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدّة حره، فما زالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملَك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيباً لهم إلى أن غربت الشمس؛ فصيح بهم فأهلكوا. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي

---

(١) الآية (٧٧) من سورة الأعراف.

(٢) الآية (١٠١) من سورة النساء.

ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثَمت. ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ تقدّم معناه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام لَحًا[1]، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافاً. وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام[2]، قاله ابن عباس. الضحّاك: كانوا تسعة[3]. السّدي: أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه[4]، ذوو وضاءة وجمال بارع. ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ قيل: بالولد. وقيل: بإهلاك قوم لوط. وقيل: بشروه بأنهم رسل الله عزّ وجلّ، وأنه لا خوف عليه. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ نصب بوقوع الفعل عليه؛ كما تقول: قالوا خيراً. وهذا اختيار الطبري[5]. وأما قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾[الكهف: ٢٢] فالثلاثة اسم غير قول مقول. ولو رفعا جميعاً أو نصبا جميعاً ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ جاز في العربية. وقيل: انتصب على المصدر. وقيل: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي فاتحوه بصواب من القول. كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي صواباً؛ فسلاماً معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه ابن العربي[6] واختاره. قال: ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبراً عن الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[الرعد: ٢٤] ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾[الزمر: ٧٣]. وقيل: دَعَوا له؛ والمعنى سَلِمت سَلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ في رفعه وجهان: أحدهما: على إضمار مبتدأ أي هو سلام، وأمري سلام. والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر. وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله، فحذف الألف واللام كما حذفت من لاهمّ في قولك: اللهم. وقرئ «سِلْمٌ»[7] قال الفرّاء: السّلم والسّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ﴾ «أن» بمعنى حتى، قاله كبراء النحويين؛ حكاه ابن

---

(١) لحًا: لازق النسب ـ كما في اللسان.
(٢ـ ٤) أبو حيان (٥/ ٢٤١) في البحر المحيط.
(٥) جامع البيان (١٢/ ٧٣) للطبري.
(٦) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦٠) لابن العربي المالكي.
(٧) قراءة سبعية متواترة.

العربي[١]. التقدير: فما لبث حتى جاء. وقيل: «أن» في موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير: فما لبث عن أن جاء؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل؛ فلما حذف حرف الجر بقي ﴿ أن ﴾ في محل النصب. وفي ﴿ لَبِثَ ﴾ضمير اسم إبراهيم. و﴿ مَا ﴾ نافية؛ قاله سيبويه. وقال الفراء: فما لبث مجيئه؛ أي ما أبطأ مجيئه؛ فأن في موضع رفع، ولا ضمير في «لبث»، و«ما» نافية؛ ويصح أن تكون «ما » بمعنى الذي، وفي ﴿ لَبِثَ ﴾ ضمير إبراهيم و﴿ أن جَاءَ ﴾ خبر «ما » أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ. و﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشويّ. وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار. يقال حنذت الشاة أحنذها حنذاً أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجها فهي حنيذ. وحَنَذْت الفرس أحنذه حَنْذاً، وهو أن تحُضِره شوطًا أو شوطين ثم تُظاهِر عليه الجِلال في الشمس ليعرَق، فهو محنوذ وحنِيذ؛ فإن لم يعرق قيل: كَبَا. وحَنَذٌ موضع قريب من المدينة. وقيل: الحنِيذ السَّمِيط. ابن عباس وغيره: حنيذ نضيج[٢]. وحنِيذٍ بمعنى محنوذ؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله.

الثانية: في هذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه، فيقدّم الموجود الميسّر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان لـه جِدَة، ولا يتكلف ما يضرّ به. والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين. وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم في «البقرة » وليست بواجبة عند عامة أهل العلم؛ لقوله ﷺ: «الضّيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة»[٣]. والجائزة العطية والصلة التي أصلها على النّدب. وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٤]. وإكرام الجار ليس بواجب إجماعاً، فالضيافة مثله. والله أعلم. وذهب الليث إلى وجوبها تمسكاً بقوله ﷺ: «ليلة الضّيف حقّ»[٥] إلى غير ذلك من الأحاديث. وفيما أشرنا إليه كفاية، والله الموفق للهداية. قال ابن العربي[٦]: وقد قال قوم: إن وجوب الضِّيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ، وهذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت، والناسخ لم يرِد؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدريّ خرجه الأئمة، وفيه: «فاستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا فلُدِغ سيّد ذلك الحيّ»[٧] الحديث. وقال: هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً لَلامَ النبيّ ﷺ القوم الذين أبَوا، ولَبيّن لهم ذلك.

الثالثة: اختلف العلماء فيمن يخاطب بها؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن

---

(١) مثل السابق (٢/ ١٠٦٢) .

(٢) منقطع : بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما ، كما عند الطبري (١٢/ ٧٣) .

(٣) صحيح : البخاري (٦٠١٩) في الأدب ، مسلم (٤٨) في الإيمان عن أبي شريح الكعبي رضي الله عنه .

(٤) صحيح : البخاري (٦٠١٨) في الأدب ، مسلم (٤٧) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) صحيح : أبو داود (٣٧٥٠) في الأطعمة ، وابن ماجة (٣٦٧٧) في الأدب وصححه الألباني هناك عن أبي كريمة رضي الله عنه .

(٦) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦١) لابن العربي المالكي ـ رحمه الله .

(٧) صحيح : البخاري (٢٢٧٦) في الإجارة ، مسلم (٢٢٠١) في السلام .

المخاطب بهـا أهل الحضر والبادية. وقـال مالك: ليس على أهل الحضـر ضيافة. قـال سُحْنون: إنما الضّيافة على أهل القُـرى، وأما الحضر فالفُنْدق ينزل فيه المسافر حكى اللـغتين صاحب العين وغيره. واحتجـوا بحديث ابن عمر قال: قـال رسول الله ﷺ: «الضّيافـة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر»(١). وهذا حديث لا يصح، وإبراهيم ابن أخي عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب، وهذا مما انفرد به، ونسب إلى وضعه؛ قالـه أبو عمر بن عبد البر. قال ابن العربيّ(٢): الضيافة حقيقة فرض على الكفـاية، ومن الناس من قال: إنها واجبـة في القرى حيث لا طعام ولا مـأوى، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأوَاة والأقوات؛ ولا شك أن الضّيف كريم، والضيافة كرامة؛ فإن كان غريباً فهي فريضة.

الرابعة: قال ابن العربيّ (٣) قال بعض علمائنا: كانت ضيـافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب، وهذا حكم بالظن في موضع القطع، وبالقياس في موضع النقل؛ من أين علِم أنه قليل؟ بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم؛ وعجل لثلاثة عظيم؛ فما هذا التفـسير لكتاب الله بالرأي؟ هذا بأمانة الله هو التفسير المذمـوم فاجتنبوه فقد علمتموه.

الخامسة: السنة إذا قُدِّم للضّيف الطعـام أن يبادر المقدِّم إليه بالأكل؛ فإن كرامـة الضّيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وروي أنهم كانوا يَنكُتون(٤) بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديـهم إلى اللحم، فلما رأى ذلك منهم ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أضمر. وقيل: أحس؛ والوجوس الدخول؛ قال الشاعر:

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ به ... فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعَا

﴿خِيفَةً﴾ خوفاً؛ أي فـزعاً. وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شـراً؛ فقالت الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

السادسة: من أدب الطعام أن لصاحب الضّيف أن ينظر في ضـيفه هل يأكل أم لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسـارقة لا بتحـديد النظر. روي أن أعرابياً أكل مع سليـمان بن عبـد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابيّ شعرة فـقال له: أزل الشعرة عن لقمتك؛ فقال له: أتنظر إليّ نظر من يرى الشّعرة في لقمتي؟ والله لا أكلت معك.

---

(١) لا يصح: القضاعي (١/ ١٩٠) وذكر المصنف علته.
والوبر: وبر الإبل لأنهم اتخذوا البيوت منه النهاية (٥/ ١٤٥).
(٢، ٣) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦٢) لابن العربي المالكي.
(٤) ينكتون: كما في اللسان: التأثير في اللحم بأصبع أو نحوه.
والقدح: هو السهم قبل أن ينصل ـ كما في اللسان.
والمراد: يوجهون سهامهم في اللحم الموضوع أمامهم.

قلت: وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

ولَلموتُ خيرٌ من زيارة باخل يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْدِ

السابعة: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول: أنكرهم، تقول: نكِرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر:

وأنكرتني وما كان الذي نكِرتْ من الحوادث إلا الشّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين. ويقال: نكِرت لما تراه بعينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحاق: قائمة تصلي. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «وامرأته قائمة وهو قاعد».

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقاً للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي العِرسَ عند طُهورها وأهجرُها يوماً إذا تَكُ ضاحِكَا

وقال آخر:

وضِحْكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا كمثلِ دمِ الجوفِ يوم اللِّقا

والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة؛ أخذاً من قولهم: ضحكت الكافورة وهي قشرة الطلعة إذا انشقّت. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحِكت بمعنى حاضت[1]. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجّب؛ قال أبو ذؤيب:

فجاءَ بمزجٍ لم يَرَ الناسُ مثله هو الضَّحْكُ إلا أنه عمل النَّحْلِ

وقال مقاتل: ضحكت من خوف إبراهيم، ورِعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوّم وحده بمائة رجل. قال: وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم. وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء: لم أسمعه من ثقة؛ وإنما هو كناية. وروي أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه، فضحكت سارة عند ذلك فبشّروها بإسحاق. ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ أي قائمة في خدمتهم. ويقال: ﴿ قَائِمَةٌ ﴾لروع إبراهيم ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ لقولهم: «لاَ تَخَفْ» سروراً بالأمن. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير؛ المعنى: فبشرناها بإسحاق فضحكت، أي ضحكت سروراً بالولد، وقد هرِمت؛ والله أعلم أيّ ذلك كان. قال النحاس فيه أقوال: أحسنها أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا: لا تخف، وأخبروه أنهم رُسُل الله، فرح بذلك، فضحكت امرأته سروراً

---

(١) هذا قول مجاهد بسند مهلهل النسيج، فيه ليث بن أبي سليم وهو مختلط وفيه بقية بن الوليد وهو يدلس ويسوي وقد عنعنه فلا أراه يصح.

بفرحه. وقيل: إنها كانت قالت له: أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطاً إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت؛ قال النحاس: وهذا إن صح إسناده فهو حسن. والضحك انكشاف الأسنان. ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول: رأيت فلاناً ضاحكاً؛ أي مشرقاً. وأتيت على رَوْضة تضحك؛ أي مشرقة. وفي الحديث: «إن الله سبحانه يبعث السّحاب فيضحك أحسن الضَّحِك»[(١)]. جعل انجلاءه عن البرق ضَحِكا؛ وهذا كلام مستعار. وروي عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي « فَضَحَكَتْ » بفتح الحاء ؛ قال المهدوي: وفتح «الحاء» من﴿فَضَحِكَتْ ﴾ غير معروف. وضَحِك يضحَك ضَحْكاً وضِحكاً وضِحِكاً وضَحِكا أربع لغات. والضَّحْكة المرّة الواحدة، ومنه قول كُثيّر:

عَلِقت لضَحكتِهِ رقابُ المال

قاله الجوهري.

العاشرة:روى مسلم عن سهل بن سعد قال: دعا أبو أُسَيْد الساعديّ رسول الله ﷺ في عُرْسه، فكانت امرأته يومئذ خادمهم وهي العَروس. قال سهل: أتدرون ما سقت رسول الله ﷺ أنقعت له تمرات من الليل في تَوْر، فلما أكل سقته إياه[(٢)]. وأخرجه البخاري وترجم له «باب قيام المرأة على الرجال في العُرْس وخدمتهم بالنفس». قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه في عُرْسها. وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه، ويستخدمهنّ لهم. ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب. والله أعلم.

الحادية عشرة:ذكر الطبريّ أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاماً إلا بثمن؛ فقال لهم: «ثمنه أن تذكروا الله في أوّله وتحمدوه في آخره » فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلاً[(٣)]. قال علماؤنا: ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل. وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسداً وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضّيافة حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى[(٤)]فجأة.

الثانية عشرة:ودلّ هذا على أن التسمية في أوّل الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقي يوماً رجلاً، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم: سمّ الله، قال

(١)رواه أحمد (٥/٤٣٥) وقال الهيثمي (٢/٢١٦) :رواه أحمد ورجال أحمد رجال الصحيح ، والبيهقي رقم (٦٦٢) في الأسماء والصفات عن رجل من بني غفار وجهالة الصحابي لا تضر .

(٢) صحيح :البخاري (٥١٧٦) في النكاح ، مسلم (٢٠٠٦) في الأشربة .

وتور : إناء من صُفر (نحاس) أو حجارة كالإجّانة وقد يتوضأ منه . النهاية (١/١٩١) لابن الأثير

(٣) ضعيف جداً :رواه السُّدي كما عند الطبري (١٢/٧٦) في تفسيره .

(٤)أحكام القرآن (٣/١٠٦٣) لابن العربي المالكي .

الرجل: لا أدري ما الله؟ فقال له: فـاخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبـريل فقال له: يقول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقـمة؛ فخرج إبراهيم فزعاً يجرّ رداءه، وقال: ارجع، فقال: لا أرجع حـتى تخبرني لم تردّني لغير مـعنى؟ فأخبره بالأمر؛ فـقال: هذا رب كريم، آمنت؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمناً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمنّت سارة أن يكون لها ابن، وأيِست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيّا ويلد نبيّا، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ قرأ حمزة وعبـد الله بن عامر «يعقوبَ» بالنصب. ورفع الباقون؛ فالرفع على معنى: ويحدث لهـا من وراء إسحاق يعقوبُ. ويجوز أن يرتفع بالفعل الـذي يعمل في ﴿ مِن ﴾ كأن المعنى: وثبت لهـا من وراء إسحاق يعقـوبُ. ويجوز أن يرتفع بالابتداء، ويكون في مـوضع الحال؛ أي بشّروها بإسحـاق مقابلاً له يعقـوب. والنصب على معنى: ووهبنا لها من وراء إسـحاق يعقـوبُ. وأجاز الكسائيّ والأخـفش وأبو حاتم أن يكون﴿ يَعْقُوبَ﴾ في موضع جرّ على معنى: وبشرناها من وراء إسحاق بيـعقوب. قال الفراء: ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قـال سيبويه ولو قلت: مـررت بزيد أوّل من أمس وأمس عمرٍو كان قـبيحاً خبـيثاً؛ لأنك فرقت بين المجـرور وما يشركه وهو الواو، كـما تفرق بين الجار والمجرور؛ لأن الجـار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ قال الزجـاج: أصلها يا ويلتي؛ فـأبدل من الياء ألفـاً، لأنها أخفّ من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسهـا بالويل، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها ومن كون بعلهـا شيخاً لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستـغرب ومستنكر. و﴿ أَأَلِدُ ﴾ استفهـام معناه التعجب. ﴿ وأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أي شيخة. ولقد عَجَزت تَعْجِزُ عَجْزاً وعَجَّزت تعجيزاً؛ أي طعنت في السنّ. وقد يقال: عجوزة أيضاً. وعجزت المرأة بكسر الجـيم؛ عظمت عجيـزتها عُجْـزاً وعَجَزاً بضم العين وفـتحهـا. قال مجـاهد: كانت بنت تسع وتسعين سنة. وقال ابن إسحاق: كانت بنت تسعين سنة. وقيل غير هذا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي. ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال، والعامل فيه التنبيه أو الإشارة. «وَهَذَا بَعْلِي » ابـتداء وخبـر. وقال الأخفش: وفي قـراءة ابن مسعـود وأُبيّ «وهذا بعلي شيخ » قال النحاس: كـما تقول: هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا؛ وقائم خـبر الابتداء. ويجوز أن يكون «هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين؛ وحكى سيبويه: هذا حلوٌ حامضٌ. وقيل: كان إبراهيم ابن مائة وعـشرين سنة. وقيل: ابـن مائة فكان يزيد عليهـا في قول مجـاهد سنة. وقيل: إنهـا عرضت

بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي عن ترك غِشْيانه لهـا. وسارّة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور ابن شاروع بن أرغـو بن فالغ، وهي بنت عم إبراهيم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي الذي بشرتموني به لشيء عجيب.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تـعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ لما قالت: ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ وتعجبت، أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمـر الله، أي من قضائه وقـدره، أي لا عجب من أن يرزقكما الله الولد، وهو إسحاق. وبهذه الآية استدلّ كثير من العلماء على أن الذَّبيح إسماعيل، وأنه أسنّ من إسحاق؛ لأنها بشّرت بأن إسحـاق يعيش حتى يولد له يعقوب[1]. وسيأتي الكلام في هذا؛ وبيانه في «الصافات» إن شاء الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وحكى سيبويه «عليكِم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء. وهل هو خبر أو دعاء؟ وكـونه إخباراً أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، المعنى: أوصل الله لكم رحمتـه وبركاته أهل البيت. وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد. ونصب ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه. وقيل: على النداء.

الثالـثة: هذه الآية تعطي أن زوجة الرجـل من أهل البيت؛ فدلّ هذا على أن أزواج الأنبـياء من أهل البيت؛ فـعائشـة رضي الله عنها وغـيرها من جملة أهـل بيت النبي ﷺ؛ ممن قال الله فـيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وسيأتي.

الرابعة: ودلّت الآية أيضاً على أنّ منتهى السلام ﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾ كما أخبـر الله عن صالحي عباده ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾. والبركة النمـوّ والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جمـيع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسـارّة. وروى مالك عن وهب بن كَيْـسَان أبي نعيم عن محـمد بن عمـرو بن عطاء قال: كنت جالساً عند عـبد الله بن عبـاس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فـقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ ثم زاد شيئاً مع ذلك؛ فقال ابن عباس وهو يومئذ قد ذهب بصره: مَن هذا ؟ فقالوا: اليمانيّ الذي يغشاك، فعـرّفوه إياه، فقال: إن السلام انتهى إلى البركة. ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي ﷺ في عصبة من أصحابه، فقلت: السلام عليكم؛ فقال: «وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشرة لك». قال: ودخلت الثانية؛ فقلت: السلام عليكم ورحـمة الله فقـال: «وعليك السلام ورحـمة الله وبركاته ثلاثون لي وعـشرون لك». فدخلت الثالثة فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته

---

(١) وهذا استدلال صحيح وسيأتي في سورة الصافات إن شاء الله تعالى.

ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في السلام سواء»[١]. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي محمود ماجد. وقد بيناهما في «الأسماء الحسنى».

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي الخوف؛ يقال: ارتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة:

فارتاعَ من صَوْتِ كَلاَّبٍ فبات لهُ ... طوعَ الشَّوامتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾ أي بإسحاق ويعقوب. وقال قَتَادة: بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف[٢]. ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أي يجادل رسلنا، وأضافه إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره. وهذه المجادلة رواها حُميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون ؟ قالوا: لا ،قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرة أو خمسة ـ شك حميد ـ قالوا: لا. قال قَتَادة: نحواً منه؛ قال: فقال يعني إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم. وقيل: إن إبراهيم قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣) [العنكبوت: ٣٢]. وقال عبد الرحمن بن سَمُرة: كانوا أربعمائة ألف[٤]. ابن جُريج. وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف. ومذهب الأخفش والكسائيّ أنّ ﴿يُجَادِلُنَا﴾ في موضع ﴿جَادَلَنَا﴾. قال النحاس: لما كان جواب «لَمّا» يجب أن يكون بالماضي جعل المستقبل مكانه؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضي مكانه. وفيه جواب آخر أن يكون ﴿يُجَادِلُنَا﴾ في موضع الحال؛ أي أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفرّاء. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ تقدّم في «براءة» معنى «أَوَّاهٌ حَلِيمٌ». والمنيب الراجع؛ يقال: أناب إذا رجع. وإبراهيم ﷺ كان راجعاً إلى الله تعالى في أموره كلها. وقيل: الأوّاه المتأوّه أسفاً على ما قد فات قوم لوط من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابه لهم. ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ أي نازل بهم. ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

---

(١) ضعيف جداً : الهيثمي (٨/ ٣٠ـ٣١) وقال: رواه البزار وفيه مختار بن نافع التيمي ، وهو ضعيف ، وفيه عبيد ابن إسحاق العطار وهو : متروك .

(٢) حسن ؛ الطبري (١٢/ ٨٢) في تفسيره .

(٣) حسن الإسناد : ابن أبي حاتم (٨/ ٢١٨) في تفسيره .

(٤) انظر السابق / نفسه .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط وهما تستقيان بالملائكة ورأتا هيئة حسنة؛ فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أيها من يضيفنا؟ قالتا: نعم هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي ساءه مجيئهم؛ يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوؤه فهو متعدّ أيضاً، وإن شئت ضممت السين؛ لأن أصلها الضمّ، والأصل سُوِئَ بهم من السوء؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سِيَ بِهِم» مخففاً، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يَذْرَعَ البعير بيديه في سيره ذَرْعاً على قدر سعة خَطْوِه؛ فإذا حُمل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقه؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع. وقيل: هو من ذَرَعه القيء أي غلبه؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي شديد في الشر. وقال الشاعر:

وإنَّكَ إلاَّ تُرض بكرَ بن وائلٍ يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ

وقال آخر:

يومٌ عصيبٌ يَعصبُ الأبطالاَ عَصْبَ القَويّ السَّلَمَ الطِّوالاَ

ويقال: عصيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير؛ أي مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أي عصب بالشر عصابة؛ ومنه قيل: عُصبة وعصابة أي مجتمعو الكلمة؛ أي مجتمعون في أنفسهم. وعَصَبَة الرجل المجتمعون معه في النسب؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته، ورجل معصوب، أي مجتمع الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ في موضع الحال. ﴿ يُهْرَعُونَ﴾ أي يسرعون. قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رِعدة؛ يقال: أُهْرِع الرجل إهراعاً أي أسرع في رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى، وهو مُهرَع؛ قال مُهلهل:

فجاؤوا يُهرَعون وهُمْ أسارَى نَقودُهُمُ على رَغْمِ الأُنوفِ

وقال آخر:

بمعجَلات نحوه مهَارِعِ

وهذا مـثل: أُولِع فلان بالأمـر، وأرعِد زيد، وزُهِي فـلان. وتجيء ولا تسـتعـمل إلا على هذا الوجه. وقيل: أهرِع أي أهرعه حرصُه؛ وعلى هذا ﴿ يُهْرَعُونَ﴾ أي يُستحثّون عليه. ومن قال بالأول قـال: لم يسمع إلا أُهْرِع الـرجلُ أي أسرع؛ على لفظ مـا لم يسمّ فـاعله. قـال ابن القوطيّـة: هُرِع الإنسان هَرَعا، وأُهرِع: سيق واستعجل. وقـال الهروي: يقال: هُرِع الرجلُ وأُهْرِع أي استُحِثّ. قال ابن عباس وقـتادة والسّديّ: ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ يهرولون. الضحـاك: يَسعون. ابن عُيينة: كـأنهم يدفعون. وقال شِـمر بن عطيـة: هو مشي بين الهـرولة والجَمـزَى. وقال الحسـن: مشيٌ بين مشـيين؛ والمعنى متقارب. وكان سبب إسراعهم ما روي أن امـرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم: إن لوطـاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً؛ وكذا وكذا؛ فـحينئذ جاؤوا يُهـرعون إليه. ويذكر أن الـرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرث له. وقيل: وجـدوا ابنته تستقي ماء من نهـر سَدوم؛ فسألوها الدلالة على من يضـيفهم ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مـكانكم وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم؛ فقالوا: نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال أشهد بالله إنهـم لشر قوم في الأرض وقد كان الله عـزّ وجل قال للملائكته: لا تعذبوهم حـتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات فلما قال لوط هذه المقالة، قـال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة.

قوله تـعالى: ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي ومن قبل مـجيء الرسل. وقيل: مـن قبل لوط. ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي كانت عـادتهم إتيان الرجـال. فلما جاؤوا إلى لوط وقـصدوا أضيـافه قـام إليهم لوط مدافعاً، وقال: ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي ﴾ ابتداء وخبر. وقـد اختلف في قوله: ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي ﴾ فقيل: كان له ثلاث بنات من صُلبه. وقيل: بنتان؛ زيتا وزعوراء؛ فقيل: كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه. وقـيل: ندبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافـر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نسخ؛ فـزوج رسول الله ﷺ بنتاً له من عُتْـبَة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قـبل الوحي، وكانا كافرين. وقـالت فرقة منهم مجـاهد وسعيد بن جُـبير: أشار بقـوله: ﴿ بَنَاتِي ﴾ إلى النسـاء جملـة؛ إذ نبيّ القوم أب لهم؛ ويـقوّي هذا أن في قـراءة ابن مسعود: «النَّبِـيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهم وأزواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أبٌ لهم». وقـالت طائفة: إنما كان الكلام مدافـعة ولم يرد إمضاءه؛ روي هـذا القول عن أبي عبيـدة؛ كما يقـال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا. وقال عِكرمة: لم يعـرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

قوله تعالى: ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر؛ أي أزوّجكمـوهنّ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون، أي أحلّ. والتطهر التنزّه عمـا لا يحل. وقال ابن عباس: كان رؤساؤهم خطبـوا بناته فلم يجبهم، وأراد ذلك اليوم أن يفـدي أضيافـه ببناته. وليس ألِف «أطهر» للتفـضيل حتى يتـوهم أن في نكاح الرجال

طهارة، بل هو كـقولك: الله أكبر وأعلى وأجلّ، وإن لم يكن تفـضيلاً؛ وهذا جائز شـائع في كلام العرب، ولم يكابر الله تعالى أحدٌ حتى يكون الله تعالى أكـبر منه. وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أُحد: اعْلُ هُبَلُ اعْلُ هُبَلُ؛ فقال النبي ﷺ لعمر: «قل الله أعلى وأجلّ»[1]. وهبل لم يكن قط عالياً ولا جليلاً. وقرأ العامة برفع الراء. وقـرأ الحسن وعيسى بن عمرو ﴿هُنَّ أَطْهَرُ﴾ بالنصب على الحال. و﴿هُنَّ﴾ عماد. ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون ﴿هُنَّ﴾ هاهنا عماداً، وإنما يكون عماداً فيـما لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كـان زيد هو أخاك، لتدلّ بهـا على أن الأخ ليس بنعت. قال الزجاج: ويدلّ بهـا على أنّ كان تحتـاج إلى خبر. وقال غـيره: يدلّ بها على أن الخـبر معرفـة أو ما قارنها.

قولـه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي لا تهينوني ولا تذلّوني. ومنه قول حسان:

فأخزاكَ ربي يا عُتيبَ بن مالك ولقاكَ قبل الموت إحدى الصَّواعق
مددتَ يميناً للنبي تَعـــمُّداً ودَمَّيتَ فاهُ قُطِّعـــتْ بالبَوَارِق

ويجوز أن يكون من الخَزَايَة، وهو الحياء، والخجل؛ قال ذو الرُّمة:

خزاية أدركته بعد جولتِهِ من جانبِ الحبلِ مخلوطاً بها الغضب

وقال آخر:

من البيضِ لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ بها مِرْطَهَا أو زايلَ الخَلْيُ جِيدَهَا

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه في الأصل مصدر؛ قال الشاعر:

لا تَعدمي الدهرَ شفار الجازرِ للضّيف والضيفُ أحقّ زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع؛ والأوّل أكثر كقولك: رجالُ صَوْمٍ وفِطر وزَوْرٍ. وخزي الرجلُ خَزَايَةً؛ أي استحيا مثل ذَلّ وهان. وخَزِي خِزياً إذا افتضح؛ يَخْزَى فـيهما جميعاً. ثم وبخهم بقولـه: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل: ﴿رَّشِيدٌ﴾ أي ذو رَشَد. أو بمعنى راشد أو مرشِد، أي صالح أو مصلِح. ابن عبـاس: مؤمن. أبو مالك: ناه عن المنكر. وقيل: الرشيد بمعنى الرّشَد؛ والرَّشَـد والرّشاد الـهدى والاستـقامة. ويجوز أن يكون بمعنى المرشـد؛ كالحكيم بمعنى المحكِم.

قولـه تـعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ روي أن قوم لوط خطبـوا بناته فردّهم، وكانت سنتهم أن من ردّ في خطبة امرأة لم تحل لـه أبداً؛ فذلك قولـه تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ وبعـد ألاّ تكون هذه الخاصـيّة. فـوجه الكلام أنه ليس لـنا إلى بناتك تعلق، ولا هنّ قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارة إلى الأضياف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لما رأى استمرارهم في غـيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عوناً على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي أنصاراً وأعواناً. وقـال ابن عباس: أراد الولد. و«أنّ» في موضع رفع بفعل مضـمر، تقديره: لو

(١) صحيح: وقد سبق.

اتفق أو وقع. وهذا يطرد في ﴿أَنَّ﴾ التابعة لـ﴿ لَوْ ﴾ وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون. ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ألجأ وأنضوي. وقرىء «أو آوِيَ» بالنصب عطفاً على «قوّة» كأنه قال: «لو أن لي بكم قوّة؛ أو إيواء إلى ركن شديد؛ أي وأن آوى، فهو منصوب بإضمار ﴿أَنَّ﴾ . ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة. وبلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا: إن ركنك لشديد. وفي البخاري عن أبي هُريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»(١) الحديث؛ وقد تقدّم في «البقرة». وخرجه الترمذيّ وزاد «ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه»(٢). قال محمد بن عمرو: والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن. ويروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرسل: تنحّ عن الباب؛ فتنحّى وانفتح الباب؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]. وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنَّصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم. وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عين مَن بَعُد ومَن قَرُب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقاً، ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً هو أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا. وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه(٣).

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعته عرّفوه بأنفسهم، فلما علم أنهم رسلٌ مكّن قومه من الدخول، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا، وعلى أيديهم فجفّت. ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي بمكروه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ «فاسر» بوصل الألف وقطعها؛ لغتان فصيحتان. قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر: ٤] وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] وقال النابغة: فجمع بين اللغتين:

أَسْرتْ عليه مِنَ الجوزاء ساريةٌ تُزجِي الشمالُ عليهِ جامدَ البَرَدِ

وقال آخر:

حَيٍّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ أَسْرتْ إليكَ ولم تكنْ تَسْرِي

وقد قيل: ﴿ فَأَسْرِ﴾ بالقطع إذا سار من أوّل الليل، وسرى إذا سار من آخره؛ ولا يقال في النهار إلا سار. وقال لبيد:

(١، ٢) صحيحان وقد سبقا.

(٣) رأيته عن قتادة عن حذيفة، وبينهما انقطاع، وعن سعيد بن جبير، وعن السدي، وعن وهب بن منبه والإسناد صحيح لهما والخبر من الإسرائيليات، انظر الطبري (١٢/ ٩٣-٩٦).

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنَّ أنَّهُ قَضَى عملاً والمرءُ ما عاش عامِلُ

وقال عبد الله بن رَوَاحَةَ:

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى وتَنْجَلِي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى

قوله تعالى: ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل[1]. الضحّاك: ببقية من الليل. قَتَادة: بعد مضي صدر من الليل. الأخفش: بعد جنح من الليل. ابن الأعرابي: بساعة من الليل. وقيل: بظلمة من الليل. وقيل: بعد هدء من الليل. وقيل: هزيع من الليل[2]. وكلها متقاربة؛ وقيل: إنه نصف الليل؛ مأخوذ من قطعه نصفين؛ ومنه قول الشاعر:

ونائحةٍ تَنُوحُ بِقطعِ ليلٍ على رجلٍ بقارعة الصّعيد

فإن قيل: السُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ ؟ **فالجواب:** أنه لو لم يقل: ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ جاز أن يكون أوّله. ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجاهد. ابن عباس: لا يتخلف منكم أحد. عليّ بن عيسى: لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع. ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب؛ وهي القراءة الواضحة البيّنة المعنى؛ أي فأسر بأهلك إلا امرأتك. وكذا في قراءة ابن مسعود «فأسر بأهلك إلا امرأتك» فهو استثناء من الأهل. وعلى هذا لم يخرج بها معه. وقد قال الله عز وجل: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] أي من الباقين. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «إلا امرأتُك»[3] بالرفع على البدل من «أحد». وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال: لا يصح ذلك إلا برفع ﴿ يَلْتَفِتْ ﴾ ويكون نعتاً؛ لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات، وليس المعنى كذلك. قال النحاس: وهذا الحمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون؛ والرفع على البدل له معنى صحيح، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه: لا يخرج فلان؛ فلفظ النهي لفلان ومعناه للمخاطب؛ أي لا تدعه يخرج؛ ومثله قولك: لا يقم أحد إلا زيد؛ يكون معناه: انههم عن القيام إلا زيداً؛ وكذلك النهي للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال: انههم لا يلتفت منهم أحد إلا امرأتك. ويجوز أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك، وأن لوطاً خرج بها، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته؛ فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت: واقوماه فأدركها حجر فقتلها. ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾ أي من العذاب. والكناية في ﴿ إِنَّهُ ﴾ترجع إلى الأمر والشأن؛ أي فإن الأمر والشأن والقصة. ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ لما قالت الملائكة: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لوط: الآن الآن. استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه؛ فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر «أليس الصُّبُحُ» بضم الباء وهي لغة. ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع. وقال بعض أهل التفسير: إن

---

(١) ضعيف: الطبري (١٢/ ٩٨) بسند فيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة الوالبي وابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هزيع من الليل: طائفة منه، نحو ثلثه أو ربعه، الدر المنثور (٢/ ١٠٧١) للسيوطي.

(٣) قراءة سبعية متواترة.

لوطاً خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له: إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت ابنتاه فلا يهولنّك ما ترى. فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهي خمس: سدوم وهي القرية العظمى وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم، لم تنكفئ لهم جرّة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة. مقاتل: أهلكت أربعة، ونجت ضعوه. وقيل غير هذا؛ والله أعلم[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم؛ وقد تقدّم في «الأعراف». وفي التفسير: أمطرنا في العذاب، ومطرنا في الرحمة. وأما كلام العرب فيقال: مطرت السماء وأمطرت: حكاه الهرويّ. واختلف في «السِّجِّيل؛ فقال النحاس: السجيل الشديد الكثير؛ وسجيل وسِجِّين اللام والنون أختان. وقال أبو عبيدة: السجيل الشديد؛ وأنشد:

ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينَا

قال النحاس: وردّ عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال: هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به؟ قال النحاس: وهذا الرد لا يلزم، لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلاً؛ لأنه لا يقال: حجارة من شديد؛ لأن شديداً نعت. وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء: سجيل. وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلاً طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء. وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحاق: إن سجيلاً لفظة غير عربية عُرِّبت، أصلها سَنْج وجِيل[٢]. ويقال: سَنْك وكِيلْ؛ بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً. وقيل: هو من لغة العرب. وقال قتادة وعكرمة: السجيل الطين[٣] بدليل قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]. وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشدّدت. والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقال ابن زيد: طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلاً اسم السماء الدنيا[٤]؛ ذكره المهدويّ؛ وحكاه الثعلبيّ عن أبي العالية؛ وقال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بـ «منضود». وعن عكرمة: أنه

---

(١) هذه الروايات عن قتادة، وعن أبي بكر الهذلي وهو إخباري متروك، وعن مجاهد، وعن السدي، ومحمد بن كعب القرظي عند الطبري (١٢/١٠٢ـ١٠٤).

(٢) هذا مروي عن السدي عن ابن عباس وفيه كلام، وإن كان الإسناد محتملاً للتحسين كما عند الطبري (١٢/٩٩). وكذا رواه مجاهد والسدي، ووهب بن منبه.

(٣) صحيح إليها: الطبري (١٢/٩٩) في تفسيره.

(٤) هذا باطل: ولا يصح ولم نره مسنداً عن المعصوم ﷺ ورواه الطبري (١٢/٩٩).

بحر مـعلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلـت الحجارة[١]. وقيل: هي جبـال في السماء[٢]، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [النور: ٤٣]. وقيل: هو مما سجّل لهم أي كتب لهم أن يصيبهم؛ فـهو في معنى سجين؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين: ٨ ٩] قاله الزجـاج واختاره. وقيل: هو فـعّيل من أسجلتـه أي أرسلته؛ فكأنها مرسَلة عليهم. وقيل: هو من أسجلته إذا أعطيتَه؛ فكأنه عذاب أُعطوه؛ قال:

مَنْ يُساجِلْني يُساجِلْ ماجداً يَمْلأ الدَّلْو إلى عَقْد الكَرَب

وقال أهل المعاني: السجّيل السجّين الشديد من الحَجَر والضَّرب؛ قال ابن مُقْبل:

ورَجْلَة يضربون البَيْضَ ضَاحِيَة ضَرْباً تَواصَى به الأبطالُ سجِّينَا

﴿مَّنضُودٍ ﴾ قال ابن عباس: متتابع. وقال قتادة: نُضد بعضها فوق بعض[٣]. وقال الرّبيع: نُضد بعضه على بعض حتى صار جسداً واحداً[٤]. وقال عِكرمة: مصفوف[٥]. وقال بعضهم مرصوص؛ والمعنى متقارب. يقال: نَضَدت المتاع واللّبِن إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ؛ قال:

ورفَّعَتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَد

وقال أبو بكر الهُذَليّ: مُعَـدّ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظَّلمة[٦]. ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي معلمَة، من السِّيما وهي العلامة؛ أي كان عليهـا أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رُمي به، وكانت لا تشـاكل حجارة الأرض. وقال الفـرّاء: زعموا أنهـا كانت مخططة بحمـرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها. وقال كعب: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقال الشاعر:

غلامٌ رماه اللّهُ بالحسنِ يافعاً له سِيمياء لا تَشقُّ على البَصَرْ

و﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ من نعت حجارة. و﴿مَّنضُودٍ ﴾ من نعت ﴿ سِجِّيلٍ ﴾. وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن. ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ يعني قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم. وقال مجاهد: يُرهِب قريشاً[٧] المعنى: ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد. وقال قتـادة وعِكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة؛ والله ما أجار الـله منها ظالماً بعد[٨]. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سـيكون في آخر أمّـتي قوم يكتفي رجـالهم بالرجال ونسـاؤهم بالنساء فـإذا كان ذلك فارتقبوا عـذاب قومِ لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجّـيل » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ . وفي رواية عنه عليـه السلام: «لا تذهب الليـالي والأيام حتى تستحلّ هذه الأمـة أدبار الرجال كما استـحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمـة حجارة من

(١، ٢) ولا يصح هذا أيضاً .
(٣ـ٥) الطبري (١٢/ ١٠٠) .
(٦) الطبري (١٢/ ١٠١) وأبو بكر الهذلي إخباري متروك .
(٧) صحيح : الطبري (١٢/ ١٠٢) .
(٨) حسن إلى قتادة : السابق / نفسه .

ربك»[١] وقيل: المعنى مـا هذه القرى من الظالمين ببـعيد؛ وهي بين الشـام والمدينة. وجاء ﴿بِبَعِيدٍ﴾ مذكراً علـى معنى بمكان بعيد. وفي الحـجارة التي أمطرت قولان: أحدهمـا: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. الثاني: أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ
وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ
بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ
فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا
ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم
مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن
لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى مدين، ومدين هم قـوم شعيب. وفي تسميـتهم بذلك قولان: أحدهما: أنهم بنو مـدين بن إبراهيم؛ فقيل: مدين والمراد بنو مـدين. كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَـر. الثاني: أنه اسم مدينتهم، فنسبوا إليها. قـال النحاس: لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة؛ وقد تقدّم في «الأعراف» هذا المعنى وزيادة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدّم. ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفـيف؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، واستـوفوا بغاية ما يَقدِرون عليه وظلموا؛ وإن جاءهم مـشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحّـحوا له بغاية ما يـقدِرون؛ فأمروا بالإيمان إقـلاعاً عن الشرك، وبالوفاء نهـياً عن

(١) ضعيف جدًّا بل موضوع : رواه الخطيب البغدادي بنحوه ، وابن عساكر عن أيوب بن مدرك بن العلاء الحنفي عن مكحول عن واثلة به وأيوب متروك كما في كنز العمال (٣٨٥٠٠) .

التطفيف. ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أي في سَعة من الرزق، وكثرة من النِّعم. وقال الحسن: كان سعرهم رخيصاً [١]. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يوم شديد؛ أي شديد حرّه. واختلف في ذلك العذاب؛ فقيل: هو عذاب النار في الآخرة. وقيل: عذاب الاستئصال في الدنيا. وقيل: غلاء السعر؛ روي معناه عن ابن عباس [٢]. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء» [٣]. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيداً. والإيفاء الإتمام. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذي نصيب إلى نصيبه؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل: أوفوا بالمكيال وبالميزان؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم مما استحقوه شيئاً. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بيّن أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض، وقد مضى في «الأعراف» زيادة لهذا، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم؛ قال معناه الطبريّ وغيره. وقال مجاهد: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يريد طاعته. وقال الرّبيع: وصية الله. وقال الفرّاء: مراقبة الله. ابن زيد: رحمة الله. قتادة والحسن: حظكم من ربكم خير لكم. وقال ابن عباس: رزق الله خير لكم [٤]. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين. وقيل: يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم؛ أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق. وقيل: أي لا يتهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ﴾ وقرئ «أَصَلَاتُكَ» من غير جمع. ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ «أن» في موضع نصب؛ قال الكسائي: موضعها خفض على إضمار الباء. وروي أن شعيباً عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظباً على العبادة فرضها ونفلها ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمرّ عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم. وقيل: إن الصلاة هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيان عن الأعمش، أي قراءتك تأمرك [٥] ودلّ بهذا على أنهم كانوا كفاراً. وقال الحسن: لم يبعث الله نبيّاً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَميّ

---

(١) كذا عند الطبري (١٢/ ١٠٤) في تفسيره.

(٢) ضعيف: فيه عبد الله بن داود الواسطي وهو ضعيف، وفيه الذيال بن عمرو ولم أعرفه، الطبري (١٢/ ١٠٤).

(٣) صحيح بنحوه: سبق عند ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) ضعيف: فيه جهالة المحدث.

(٥) مرسل: الطبري (١٢/ ١٠٨) في تفسيره.

والضحاك بن قيس «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: ﴿أَوْ أَن﴾ على هذه القراءة معطوفة على ﴿أن﴾ الأولى. ورُوي عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْف الدراهم[١]. وقيل: معنى. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فَلِم تمنعنا منه؟. ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك؛ ومثله في صفة أبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية[٢]، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الْجَون؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل. ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. وقال سفيان بن عُيَينة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل، كما قيل لِلَّديغ سَليم، وللفلاة مَفازة. وقيل: هو تعريض أرادوا به السبّ؛ وأحسن من هذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته، أي إنك أنت الحليم الرشيد حقّا، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ويدلّ عليه. ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضاً ما يدلّ عليه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي أفلا أنهاكم عن الضلال؟ وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه. ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة للنبي ﷺ حين قال لهم: «يا إخوة القردة»[٣] فقالوا: يا محمد ما علمناك جهولا.

مسألة: قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّاً، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون في الوزن. وقال ابن وهب: قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدراهم[٤]، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدّمين كسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود[٥] عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تكسر سكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس ؛ فإنها إذا كانت صحاحاً قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس؛ ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] أنهم كانوا يكسرون الدراهم؛ قاله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظي[٦].

---

(١) السابق / نفسه .

(٢) رواه الطبري (١٢/ ١٠٩) عن ابن جريج وعن ابن زيد .

(٣) مرسل : الطبري (١/ ٣٧٠ـ٣٧١) عن مجاهد مرسلاً .

(٤) ابن العربي (٣/ ١٠٦٤) في أحكام القرآن .

(٥) ضعيف : أبو داود (٣٤٤٩) في الإجارة ، ابن ماجة (٢٢٦٣) في التجارات ، وضعفه الألباني كما في سنن أبي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه وعن أمه صـ٥٢٥ ط مكتبة المعارف ـ الرياض .

(٦) ذكره الطبري (١٢/ ١٠٨) في تفسيره .

مسألة: قال أصْبغ: قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقيّ: من كسرها لم تقبل شهادته، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا بموضع عذر؛ قال ابن العربي[١]: أما قوله: لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرةً، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلأنه أمرٌ بيّنٌ لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفِي وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك.

مسألة: إذا كان هذا معصية وفساداً تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك. ومرّ ابن المسيّب برجل قد جُلد فقال: ما هذا؟ قال رجل: يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ابن المسيّب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده[٢]؛ ونحوه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن النَّجيبي: كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل يقطع الدراهم وقد شُهِد عليه فضربه وحَلَقه، وأمر فطِيف به، وأمره أن يقول: هذا جزاء من يقطع الدراهم؛ ثم أمر أن يُرَدّ إليه؛ فقال: إنه لم يمنعني أن أقطع يدك إلا أني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدّمت في ذلك فمن شاء فليقطع. قال القاضي أبو بكر بن العربي[٣]: أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه، وأما حلقه فقد فعله عمر؛ وقد كنت أيام الحكم بين الناس أضرب وأحلق، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عوناً له على المعصية، وطريقاً إلى التجمل به في الفساد، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها، فإن الكسر إفساد الوصف، والقرض تنقيص للقدر، فهو أخْذُ مال على جهة الاختفاء؛ فإن قيل: أليس الحِرز أصلاً في القطع؟ قلنا: يحتمل أن يكون عمرُ يرى أن تهيئها للفصل بين الخلق ديناراً أو درهماً حِرز لها، وحِرز كل شيء على قدر حاله؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدراهم. وقد قال علماؤنا المالكية: إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتماً لله كان أهلاً لذلك، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أدّب، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة. قال ابن العربي[٤]: وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتي الحكم، إلا أني كنت محفوفاً بالجهال، فلم أجبن بسبب المقال للحسدة الضلال فمن قدر عليه يوماً من أهل الحق فليفعله احتساباً لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تقدم[٥]. ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي واسعاً حلالاً، وكان شعيب عليه السلام كثير المال، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق، والعلم والمعرفة، وفي الكلام حذف، وهو ما ذكرناه، أي أفلا أنهاكم عن الضلال وقيل: المعنى ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أتبع الضلال؟ وقيل: المعنى ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف، وقد أغناني الله عنه. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ في موضع

(١-٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٠٦٤-١٠٦٦).

(٥) انظر معاني القرآن (٣/ ٣٧٤) للنحاس.

نصب بـ ﴿أُرِيدُ﴾. ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أي أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة، وقال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة. و﴿مَا﴾ مصدرية، أي إن أريد إلا الإصلاح جهدي واستطاعتي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي رشدي، والتوفيق الرشد. ﴿إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي اعتمدت. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من جميع النوائب. وقيل: إليه أرجع في الآخرة. وقيل: إن الإنابة الدعاء، ومعناه وله أدعو.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب «يُجْرِمَنَّكُمْ». ﴿شِقَاقِي﴾ في موضع رفع. ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في موضع نصب، أي لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم، قاله الحسن وقتادة [١]. وقيل: لا يكسبنكم شقاقي إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم، قاله الزجاج. وقد تقدّم معنى﴿ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ في «المائدة» و «الشقاق» في «البقرة» وهو هنا بمعنى العداوة، قاله السدّي، ومنه قول الأخطل:

ألاَ مَنْ مُبلغٌ عنّي رسولاً فكيف وجَدتُمُ طَعْمَ الشِّقاق

وقال الحسن البصري: إضراري[٢]. وقال قتادة: فراقي[٣]. ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط. وقيل: وما ديار قوم لوط منكم ببعيد[٤]، أي بمكان بعيد، فلذلك وحد البعيد. قال الكسائيّ: أي دورهم في دوركم.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ تقدم. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيناهما في كتاب «الأسنى في شرح الأسماء الحسنى». قال الجوهريّ: وَددت الرجل أوده وداً إذا أحببته، والودود المحب، والوَد والوِد والوُد والمودة المحبة. وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذاك خطيب الأنبياء»[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي ما نفهم؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله. وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقاراً لكلامه؛ يقال: فقه يفقَه إذا فهم فِقْهاً؛ وحكى الكسائي: فَقُه فَقَهاً وفِقْهاً إذا صار فقيهاً. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيل: إنه كان مصاباً ببصره؛ قاله سعيد بن جبير وقتادة. وقيل: كان ضعيف البصر[٦]؛ قاله الثوري

---

(١) صحيح إلى قتادة من طريق عبد الرزاق : الطبري (١٢/ ١١٠)

(٢) انظر البحر المحيط (٥/ ٢٥٥) غير مسند .

(٣) صحيح إلى قتادة من طريق عبد الرزاق : الطبري (١٢/ ١١٠)

(٤) هذا قول الطبري (١٢/ ١١١) .

(٥) ضعيف جداً بل موضوع : فيه إسحاق بن بشر صاحب كتاب المبتدأ وهو كذاب ، وقد رواه عن جويبر وهو تالف ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس وفيه انقطاع ، فالإسناد مهلهل النسيج ، البداية (١/ ٢٨٢) لابن كثير .

(٦) ذكرها الطبري (١٢/ ١١١ـ١١٢) وهو باطل ، والحديث المرفوع في هذا باطل ، ذكره الواحدي ، وابن عساكر ورواه الألباني في الضعيفة (٩٩٨) وقال : ضعيف جدًا ولا يصح كون النبي أعمى إذ فيه مخالفة لما عليه الأنبياء من البعثة في أواسط قومهم وعلى أحسن ما يكون الناس من الصحة والبدن والله أعلم .

وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حِمْيَر تقول للأعمى: ﴿ضَعِيفًا﴾ أي قد ضعف بذهاب بصره؛ كما يقال له: ضرير؛ أي قد ضرّ بذهاب بصره؛ كما يقال له: مكفوف؛ أي قد كف عن النظر بذهاب بصره. قال الحسن: معناه مهين(١). وقيل: المعنى ضعيف البدن؛ حكاه عليّ بن عيسى. وقال السدي: وحيداً ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا(٢). وقيل: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها. و «ضعيفاً» نصب على الحال. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفع بالابتداء، ورهط الرجل عشيرته الذي يستند إليهم ويتقوّى بهم؛ ومنه الرّاهِطَاء لجُحر اليَربُوع؛ لأنه يَتوثّق به ويخبّئ فيه ولده. ومعنى ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك بالرّجم، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم. وقيل: معنى ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لشتمناك؛ ومنه قول الجعدي:

تَراجَمْنا بمُرّ القولِ حتى نصير كأننا فَرسَا رِهان

والرجم أيضاً اللعن؛ ومنه الشيطان الرجيم. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي﴾ ﴿أَرَهْطِي﴾ رفع بالابتداء؛ والمعنى أرهطي في قلوبكم ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم. ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهرياً؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم، وامتنعتم من قتلي مخافة قومي؛ يقال: جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه، وقد مضى في «البقرة»، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي من الكفر والمعصية. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي عليم. وقيل: حفيظ.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد؛ وقد تقدّم في «الأنعام». ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يهلكه. و﴿مَن﴾ في موضع نصب، مثل ﴿يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ عطف عليها. وقيل: أي وسوف تعلمون من هو كاذب منا. وقيل في محل رفع؛ تقديره: ويخزي من هو كاذب. وقيل: تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه، ويذوق وبال أمره. وزعم الفرّاء أنهم إنما جاؤوا بـ ﴿هُوَ﴾ في ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ لأنهم لا يقولون مَن قائم؛ إنما يقولون: مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم؛ فزادوا ﴿هُوَ﴾ ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف هذا قوله:

مَنْ رَسُولي إلى الثُّرَيَّا بأَنّي ضِقْتُ ذَرْعاً بِهَجْرِهَا والكتاب

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي انتظروا العذاب والسخطة، فإني منتظر النصر والرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ قيل: صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل. وأنث الفعل على لفظ الصيحة، وقال في قصة صالح: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] فذكّر على معنى الصياح. قال ابن عباس: ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب، أهلكهم

(١) ضعيف ولا يصح: أبو حيان (٥/٢٥٦).

(٢) وهذا المعنى يقترب من الصحة.

الله بالصيحة؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ تقدّم معناه. وحكى الكسائيّ أن أبا عبد الرحمن السلميّ قرأ «كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ» بضم العين. قال النحاس: المعروف في اللغة إنما يقال بعد يَبْعَدُ بَعَداً وبُعْداً إذا هلك. وقال المهدوي: من ضم العين من «بعدت» فهي لغة تستعمل في الخير والشر، ومصدرها البعد؛ وبعدت تستعمل في الشر خاصة؛ يقال: بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَداً؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللَّعنة؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بين أنه أتبع النبي النبيّ لإقامة الحجة، وإزاحة كل علّة ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بالتوراة. وقيل: بالمعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة بيّنة؛ يعني العصا. وقد مضى في «آل عمران»[1] معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي شأنه وحاله، حتى اتخذوه إلهاً، وخالفوا أمر الله تعالى. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي بسديد يؤدّي إلى صواب: وقيل: ﴿بِرَشِيدٍ﴾ أي بمرشد إلى خير.

قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم. يقال: قَدَمهم يقدُمُهم قدماً وقُدُوماً إذا تقدّمهم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي أدخلهم فيها. ذُكر بلفظ الماضي؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يُعبَّر عن المستقبل بالماضي. ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود، وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك. والمورود الماء الذي يورد، والموضع الذي يورد؛ وهو بمعنى المفعول.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أي في الدنيا. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائي وأبو عبيدة: رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْداً؛ أي أعنته وأعطيته. واسم العطية الرِّفْد؛ أي بئس العطاء والإعانة. والرفد أيضاً القدح الضخم؛ قاله الجوهري، والتقدير: بئس الرفد رِفد المرفود. وذكر الماوردي: أن الرِّفد بفتح الراء القدح، والرفد بكسرها ما في القدح من الشراب؛ حكي ذلك عن الأصمعي؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه في النار. وقيل: إن الرفد الزيادة؛ أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق النارُ؛ قاله الكلبي[2].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

(١) الآية (١٥١) من سورة آل عمران.
(٢) ذكره أبو حيان (٥/ ٢٦) في البحر المحيط.

فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٞ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ رفع على إضمار مبتدأ، أي الأمر ذلك. وإن شئت بالابتداء؛ والمعنى: ذلك النبأ المتقدّم من أنباء القرى نقصه عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قال قتادة: القائم ما كان خاوياً على عروشه، والحصيد ما لا أثر له[1]. وقيل: القائم العامر، والحصيد الخراب[2]؛ قاله ابن عباس: وقال مجاهد: قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل[3]؛ يعني محصوداً كالزرع إذا حصد؛ قال الشاعر:

والناس في قَسْم المنيّة بينهم كالزّرع منه قائمٌ وحَصِيدُ

وقال آخر:

إنما نحن مثلُ خَامَةِ زَرْعٍ فمتى يَأْنِ يَأْتِ مُحْتَصِدُهْ

قال الأخفش سعيد: حصيد أي محصود، وجمعه حصدى وحصاد مثل مرضى ومراض؛ قال: يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتيل وقتلى. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أصل الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه، وقد تقدّم في «البقرة»[4] مستوفى. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي. وحكى سيبويه أنه يقال: ظلم إياه ﴿فَمَا أَغْنَتْ﴾ أي دفعت. ﴿عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ في الكلام حذف، أي التي كانوا يعبدون؛ أي يدعون. ﴿لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي غير تخسير؛ قاله مجاهد وقتادة[5]. وقال لبيد:

فلقد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدّةٍ لِبِلًى يَعُودُ وذَاكُمُ التَّتْبِيبُ

---

(١) حسن إليه : الطبري (١١/١١٨) في تفسيره .

(٢) ضعيف : الطبري (١١/١١٧ـ ١١٨) في تفسيره من طريق العوفيين وفيه جهالة وضعف .

(٣) ذكره البغوي (٤/١٩٨) في تفسيره غير مسند وعزاه لمقاتل لا لمجاهد .

(٤) الآية (٣٥) من سورة البقرة .

(٥) صحيح إليها : الطبري (١٢/١١٩) في تفسيره .

والتَّبَاب الـهـلاك والخسران، وفيه إضـمار؛ أي ما زادتهم عبادة الأصنام، فـحذف المضاف؛ أي كانت عبادتهم إياهم قد خسَّرتهم ثواب الآخرة.

قولـه تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أي كما أخذ هذه القـرى التي كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جـميع القرى الظالمة. وقرأ عـاصم الجحدري وطلحة بن مصـرف «وكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى» وعن الجحدريّ أيضاً «وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ» كالجماعة ﴿ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾. قال المهدويّ: من قرأ: «وكـذلك أخذ ربك إِذْ أخذ» فهـو إخبار عـما جاءت به العـادة في إهلاك من تقدّم من الأمم؛ والمعنى: وكذلك أَخَذَ ربك من أخـذه من الأمم المهلكة إذْ أخذهم. وقراءة الجماعـة على أنه مصدر، والمعنى: كـذلك أخذ ربك من أراد إهلاكـه متى أخـذه؛ فإذْ لما مـضى؛ أي حين أخذ الـقرى؛ وإذا للمسـتقبل ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي وأهلـها ظالمون؛ فحـذف المضاف مثل ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾. ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أي عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة. وفي صـحيح مسلم والترمذيّ من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يملي للظالم حـتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» ثم قرأ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ الآية[1]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي لعبرة وموعظة. ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾. ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ ﴾، ابتداء وخبر. ﴿مَجْمُوعٌ ﴾ من نعته. ﴿لَهُ النَّاسُ﴾ اسم ما لم يسم فاعله؛ ولهذا لم يقل مجموعون؛ فإن قدرت ارتفاع ﴿النَّاسُ﴾ بالابتداء، والخبر ﴿ مَجْمُوعٌ لَهُ ﴾ فإنما لم يقل: مجمـوعون على هذا التقدير؛ لأن ﴿لَهُ ﴾ يقوم مقـام الفاعل. والجمع الحشر، أي يحـشرون لذلك اليوم. ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أي يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء. وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله.

قوله تـعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أي ما نؤخـر ذلك اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ أي لأجل سبق به قضاؤنا، وهو معدود عندنا. ﴿ يَأْتِ﴾ وقرئ «يَوْمَ يَأْتِ» لأن الياء تحذف إذا كان قـبلها كسرة؛ تقول: لا أدرِ؛ ذكره القشيري. قال النحاس: قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج، وحذفـها في الوقف؛ وروي أن أُبيّـا وابن مسعـود قرأ «يوم يأتي» بالياء فـي الوقف والوصل. وقرأ الأعمش وحمزة «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء في الوقف والوصل، قـال أبو جعفر النحاس: الوجه في هذا ألا يوقف عليه، وأن يوصل بالياء، لأن جماعة من النحويين قالوا: لا تحذف الياء، ولا يجزم الشيء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائيّ؛ قال: لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذف الياء، كـما تحذف الضـمة. وأما قـراءة حمزة فـقد احتج أبو عـبيد لحذف الـياء في الوصل والوقف بحجتين إحداهما: أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له : إنه مـصحف عثمان رضي الله عنه بغير ياء. والحجـة الأخرى أنه حكى أنها لغة هُذَيـل؛ تقول: ما أدرِ؛ قال النحـاس: أما حجته بمصحف عثـمان رضي الله عنه فـشيء يردّه عليه أكـثر العلمـاء؛ قال مـالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عـثمان رضي الله عنه فقيل لي ذَهَبَ؛ وأما حـجـته بقولهم: «ما أدرِ» فلا حـجة فيه؛ لأن

(١) صحيح : البخاري (٤٦٨٦) في التفسير ، مسلم (٢٥٨٣) في البر والصلة والترمذي (٣١١٠) في التفسير

obeikandi.com

هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه. وأنشد الفراء في حذف الياء:

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُليقُ درهما جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا

أي تعطي. وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدرِ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء؛ قال: والذي أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة؛ وقد جاء مثله في كلام العرب. ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ الأصل تتكلم؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفاً. وفيه إضمار؛ أي لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح. وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه. وقيل: إن لهم في الموقف وقتاً يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه. وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدِّين. فيقول: لمَ قال: ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ و﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥ ٣٦] وقال في موضع من ذكر القيامة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧] وقال: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١] وقال: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، فسمّي من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. وقال قوم: ذلك اليوم طويل، وله مواطن ومواقف في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لهم الكلام؛ فهذا يدلّ على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه. ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي من الأنفس، أو من الناس؛ وقد ذكرهم في قوله: ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ . والشقي الذي كتبت عليه الشَّقاوة. والسّعيد الذي كتبت عليه السّعادة؛ قال لَبيد:

فمنهم سعيدٌ آخذ بنصيبه ومنهم شَقِيٌّ بالمعيشةِ قانع

وروى الترمذي عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا نبي الله فعلامَ نعمل؟ على شيء قد فُرغ منه، أو على شيء لم يُفرَغ منه؟ فقال: «بل على شيء قد فُرغ منه وجرت به الأقلامُ يا عُمر ولكن كل مُيسَّر لما خُلق له»[1]. قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر؛ وقد تقدم في «الأعراف».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ ابتداء. ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ في موضع الخبر، وكذا ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية: الزّفير من الصدر، والشهيق من الحلق[2] وعنه أيضاً ضد ذلك. وقال

(١) صححه الألباني: في سنن الترمذي (٣١١١) في كتاب التفسير ص ٦٩٨ ط ـ مكتبة المعارف ـ الرياض، والطبري (١٢/ ١٢٢) في تفسيره.

(٢) حسن إليه: الطبري (١٢/ ١٢٢) في تفسيره.

الزجاج: الزّفير من شدة الأنين، والشّهيق من الأنين المرتفع جدّاً؛ قال: وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير في النّهيق، والشّهيق بمنزلة آخر صوت الحمار في النّهيق. وقال ابن عباس رضي الله عنه عكسه؛ قال: الزفير الصوت الشديد، والشّهيق الصوت الضعيف[١]. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير مثل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته؛ قال الشاعر:

حَشْرَجَ في الجوفِ سَحِيلاً أو شَهَقْ حتى يُقالَ ناهقٌ وما نَهَقْ

وقيل: الزّفير إخراج النفَس، وهو أن يمتلئ الجوف غمًّا فيخرج بالنفس، والشّهيق ردّ النفَس وقيل: الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن؛ مأخوذ من الزَّفْر وهو الحَمْل على الظهر لشدّته؛ والشهيق النفس الطويل الممتدّ؛ مأخوذ من قولهم: جبل شاهق؛ أي طويل. والزفير والشهيق من أصوات المحزونين.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ ﴿مَا دَامَتِ﴾ في موضع نصب على الظرف؛ أي دوام السموات والأرض، والتقدير: وقت ذلك. واختلف في تأويل هذا؛ فقالت طائفة منهم الضحاك: المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفي التنزيل: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]. وقيل: أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده؛ كقولهم: لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ، أو سال سيلٌ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية؛ فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك[٢]. وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض. وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش، وأن السموات والأرض في الآخرة تردّان إلى النور الذي أخذتا منه؛ فهما دائمتان أبداً في نور العرش[٣].

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء ليس من الأول؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة: الأولى: أنه استثناء من قوله: ﴿فَفِي النَّارِ﴾ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك؛ وهذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبي سعيد الخُدْري وجابر رضي الله عنهما. وإنما لم يقل من شاء؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]. وعن أبي نَضْرَة عن رسول الله ﷺ: «إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية»[٤]. الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدّة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من ﴿خَالِدِينَ﴾ قاله قتادة والضّحاك وأبو سِنان وغيرهم. وفي

---

(١) ضعيف للانقطاع بين ابن أبي طلحة وابن عباس، وانظر السابق.

(٢) هذا ما رجحه الطبري (١٢/ ١٢٥).

(٣) هذا القول ذكره ابن عقبة (٧/ ١٠٤) في المحرر الوجيز، وهذا كلام لا سند له من كلام المعصوم ﷺ، ولا دليل عليه.

(٤) مرسل: أبو نضرة هذا تابعي جليل فالحديث مرسل.

الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمَة أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال: هؤلاء الجهنميون»(١) وقد تقدّم هذا المعنى في «النساء» وغيرها. الثالث: أن الاستثناء من الزَّفير والشَّهيق؛ أي لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذي لم يذكره، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكر، وما لم يذكر. حكاه ابن الأنباري. الرابع: قال ابن مسعود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم.

قلت: وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له في الأكل، وتجديد الخلق. الخامس: أن ﴿إِلاَّ﴾ بمعنى «سوى» كما تقول في الكلام: ما معي رجل إلاّ زيد، ولي عليك ألفا درهم إلا الألف التي لي عليك. قيل: فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود. السادس: أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد أن يخرجهم منها. كما تقول في الكلام: أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره، وأنت مقيم على ذلك الفعل؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزّجاج عن أهل اللغة، قال: ولأهل المعاني قولان آخران، فأحد القولين: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من مقدار موقفهم على رأس قبورهم، وللمحاسبة، وقدر مكثهم في الدنيا، والبرزخ، والوقوف للحساب. والقول الآخر: وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب، وتقديره: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادة العذاب لأهل الجحيم.

قلت: فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا واختاره التّرمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي، أي خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض، وذلك مدّة العالم، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه، وهو قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفّى بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقبته يخلّد في النار بمقدار دوام السموات والأرض؛ فإنما دامتا للمعاملة؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ ٣٩] فيخلّد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحقّ الأحديّة، فمن لقيه موحّداً لأحديته بقي في داره أبداً، ومن لقيه مشركاً بأحديّته إلهاً بقي في السجن أبداً؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود، ثم قال: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من زيادة المدّة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبداً. وقد قيل: إن ﴿إِلاَّ﴾ بمعنى الواو، قاله الفراء

---

(١) صحيح: البخاري (٦٥٥٩) في الرقاق، وقد سبق.

والحممة: الرماد أو كل ما احترق من النار كما في اللسان.

وبعض أهل النظر وهو الثامن والمعنى: وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدّة دوام السموات والأرض في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي ولا الذين ظلموا. وقال الشاعر:

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوه لعَمرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدان

أي والفرقدان. وقال أبو محمد مكيّ: وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون ﴿ إِلاَّ ﴾ بمعنى الواو، وقد مضى في «البقرة» بيانه. وقيل: معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] أي كما قد سلف، وهو التاسع، العاشر وهو أن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام؛ فهو على حدّ قوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٧] فهو استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال: إن شاء ربك، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ونحوه عن أبي عُبيد قال: تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى في خلود الفريقين في الدارين؛ فوقع لفظ الاستثناء، والعزيمة قد تقدّمت في الخلود، قال: وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٧] وقد علم أنهم يدخلونه حتماً، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خياراً؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام؛ ونحوه عن الفراء. وقول حادي عشر وهو أن الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم؛ وبيانه أن ﴿ مَا﴾ بمعنى «من» استثنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد ﷺ بما معهم من الإيمان، واستثنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذينُ يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة. وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني؛ كأنه قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ ألا يخلده فيها، وهم الخارجون منها من أمة محمد ﷺ بإيمانهم وبشفاعة محمد ﷺ ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء؛ كما روى الضّحّاك عن ابن عباس إذ قال: الذين سعِدوا شَقُوا بدخول النار ثم سعدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة[1].

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ بضم السين. وقال أبو عمرو: والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا. قال النحاس: ورأيت عليّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائيّ ﴿سُعِدُوا ﴾ مع علمه بالعربية إذ كان هذا لحناً لا يجوز؛ لأنه إنما يقال: سَعِد فلان وأسعده الله، وأسعد مثل أُمرِض؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم: مسعود ولا حجة له فيه؛ لأنه يقال: مكان مسعود فيه، ثم يحذف فيه ويسمى به. قال المهدوي: ومن ضمّ السين من «سعدوا» فهو محمول على قولهم: مسعود وهو شاذ قليل؛ لأنه لا يقال: سعده الله، إنما يقال: أسعده الله. وقال

(١) هذا فيه انقطاع بين الضحاك وابن عباس رضي الله عنهما.

الثعلبي: «سُعِدوا» بضم السين أي رزقوا السعادة؛ يقال: سُعِد وأسعِد بمعنى واحد وقرأ الباقون «سَعِدوا» بفتح السين قياساً على «شَقُوا» واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقال الجوهري: والسعادة خلاف الشّقاوة؛ تقول: منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سَلِم فهو سليم، وسعُد فهو مسعود؛ ولا يقال فيه: مُسْعَد، كأنهم استغنوا عنه بمسعود. وقال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم: وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود، وأسعده الله فهو مسعَد؛ فهذا يقوي قول الكوفيين. وقال سيبويه: لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقِي فلان؛ لأنه مما لا يتعدى. ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع؛ من جَذّه يَجُذُّه أي قطعه؛ قال النابغة:

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ ... وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزم بالنهي؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال. ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك. ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من الآلهة أنها باطل. وأحسن من هذا: أي قل يا محمد لكل من شك ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أن الله عز وجل ما أمرهم به، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليداً لهم. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: نصيبهم من الرزق؛ قاله أبو العالية[١]. الثاني: نصيبهم من العذاب؛ قاله ابن زيد[٢]. الثالث: ما وُعِدوا به من خير أو شر؛ قاله ابن عباس[٣] رضي الله عنهما.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر. قيل: المراد بين المختلفين في كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدّق به ومكذّب. وقيل: بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب، ولكن سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أي لفي شك من كتاب موسى فهم في شك من القرآن.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي إن كلاً من الأمم التي عددناهم يرون جزاء أعمالهم؛ فكذلك قومك يا محمد. واختلف القراء في قراءة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ فقرأ أهل الحرمين نافع وابن كثير وأبو بكر معهم «وَإِنْ كُلّاً لَمَا» بالتخفيف، على أنها «إن» المخففة من الثقيلة معملة؛ وقد

---

(١) كذا عند أبي حيان (٢/ ٢٦٥) عن أبي العالية.

(٢) كذا عند الطبري (١٢/ ١٢٩) في تفسيره.

(٣) ضعيف: فيه جابر الجعفي عن مجاهد، وفيه سفيان بن وكيع، وجابر وسفيان ضعيفان، ورواه الطبري (١٢/ ١٢٨) في تفسيره.

ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه: حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول: إن زيداً لمنطلقٌ؛ وأنشد قول الشاعر:

كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ

أراد كأنها ظبية فخفّف ونصب ما بعدها؛ والبصريون يجوزون تخفيف «إنّ» المشدّدة مع إعمالها؛ وأنكر ذلك الكسائيّ وقال: ما أدري على أي شيء قرئ «وَإِنْ كُلاًّ» وزعم الفراء أنه نصب «كلاّ» في قراءة من خفف بقوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ أي وإن ليوفينهم كلاً؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا: هذا من كبير الغلط؛ لا يجوز عند أحد زيداً لأضربنه. وشدّد الباقون «إنّ» ونصبوا بها «كلاً» على أصلها. وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر «لَمَّا» بالتشديد. وخففها الباقون على معنى: وإن كلا ليوفينهم، جعلوا «ما» صلة. وقيل: دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ «ما». وقال الزجاج: لام «لَمّا» لام «إنّ» و«ما» زائدة مؤكدة؛ تقول: إن زيداً لمنطلق؛ فإنّ تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقولك: إنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١]. واللام في ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ هي التي يُتَلقى بها القسم، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشدّدة أو المخففة؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ«ما» و«ما» زائدة مؤكدة، وقال الفراء: «ما» بمعنى «من» كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي وإنّ كلاً لمن ليوفينهم، واللام في﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ للقسم؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج، غير أن «ما» عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى «من». وقيل: ليست بزائدة، بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد، وهي خبر «إن» و﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ جواب القسم، التقدير: وإنّ كلاً خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم. وقيل: «ما» بمعنى «من» كقوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣] أي مَنْ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه. وأما من شدّد «لما» وقرأ ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا﴾ بالتشديد فيهما وهو حمزة ومن وافقه فقيل: إنه لحن؛ حكي عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز؛ ولا يقال: إنّ زيداً إلاّ لأضربنّه، ولا لَمّا لضربته. وقال الكسائي: الله أعلم بهذه القراءة، وما أعرف لها وجهاً. وقال هو وأبو علي الفارسي: التشديد فيهما مشكل. قال النحاس وغيره: وللنحويين في ذلك أقوال: الأول: أن أصلها «لمن ما؛ فقلبت النون ميماً، واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى فصارت «لما؛ و«ما؛ على هذا القول بمعنى «من؛ تقديره: وإن كلا لمن الذين؛ كقولهم:

وإنِّيَ لَمَّا أصْدِرُ الأمرَ وجهَهُ إذا هو أعْيَا بالسَّبِيلِ مَصَادِرُهُ

وزيّف الزجاج هذا القول، وقال: «من» اسم على حرفين فلا يجوز حذفه. الثاني: أن الأصل لمن ما، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات، والتقدير: وإنّ كُلاً لِمَنْ خَلْق ليوفينهم. وقيل: «لَمَّا» مصدر «لَمَّ» وجاءت بغير تنوين حملاً للوصل على الوقف؛ فهي على هذا كقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ [الفجر: ١٩] أي جامعاً للمال المأكول؛ فالتقدير على هذا: وإن كلاً ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمّاً؛ أي جامعة لأعمالهم جمعاً، فهو كقولك: قياماً لأقومنّ. وقد قرأ الزهري «لَمّا» بالتشديد والتنوين على هذا المعنى. الثالث: أن «لَمّا» بمعنى «إلاّ» حكى أهل اللغة: سألتك بالله لَمّا فعلت؛ بمعنى إلاّ فعلت؛ ومثله قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] أي إلا عليها؛

فمعنى الآية: ما كل واحـد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القُشيـريّ: وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي لقولـه: ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا﴾ حتى تقدر «إلا» ولا يقال: ذهب الناس لما زيد. الرابع: قال أبو عثمان المازني: الأصل وإن كلاّ لَمَا بتخفيف «لَمّا» ثم ثقلت كقولـه:

لقد خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدَبا في عامِنَا ذا بعدَ ما أَخْصَبا

وقال أبو إسـحاق الزجاج: هذا خطأ إنما يخفّـف المثقل، ولا يثقّل المخفّف. الخـامس: قال أبو عبيد القاسم بن سلاّم: يجوز أن يكون التشديد من قولهم: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّهُ لَمّا إذا جمعته، ثم بنى منه فَـعْلَى، كمـا قرئ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] بغـير تنوين وبتنوين. فـالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قـال أبو إسحاق: القول الذي لا يجوز غيره عندي أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى «ماء» مثل: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] وكذا أيضاً تشدّد على أصلهـا، وتكون بمعنى «ما» و«لما» بمعنى «إلا» حكى ذلك الخليل وسيبـويه وجميع البصريين؛ وأن «لما» يسـتعمل بمعنى «إلا؛ قلت: هذا القول الذي ارتضـاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مـثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول صوابه «إنْ» فيه نافيـة، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا وبقـيت قراءتان؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَي: «وَإِن كُلٌّ إِلاَّ لَيُوَفِّيَنَّهُم» وروي عن الأعمش «وَإِنْ كُلٌّ لَمَّـا» بتخـفيف «إن» ورفع «كل» وبتشـديد «لما». قال النحـاس: وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فـيها «إنْ» بمعنى «ما» لا غير، وتكون على التفسـير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة. ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد ووعيد.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولغيـره. وقيل: له والمراد أمتـه ؛ قاله السديّ. وقـيل : ﴿اسْتَقِمْ﴾ اطلب الإقـامة على الدّين من اللـه واسأله ذلك. فـتكون السين سين السؤال، كما تقول: أستغفر الله أطلب الغفران [منه] والاسـتقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمـال؛ فاستقم على امتثال أمر الله . وفي صحيح مـسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قـال: قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحـداً بعدك قال : «قل آمنت بالله ثم استقم»[1] . وروى الدارميّ أبو محمـد في مسنده عن عثمان بن حـاضر الأزديّ قال: دخلت على ابن عباس فقلت أوصـني فقال: نعم عليك بتقوى الله والاستقـامة، اتبع ولا تبتدع[2].

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي استقم أنت وهم ؛ يريـد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومَن بعـده ممن اتبعه[3] من أمتـه. قال ابن عباس : مـا نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشـد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قـال لأصحـــابه حين قـالوا له : لقـد أسرع إلـيك الشيب فـقـال : «شـيـبتني هود

(١) صحيح : مسلم (٣٨) في الإيمان .

(٢) رواه الدارمي (١/٥٣) في المقدمة برقم (١٣٩) .

(٣) انظر السابق .

وأخواتها(١)؛. وقد تقدّم في أول السورة. وروي عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ قال: سمعت أبا علي السَّرِي يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلّم في المنام فقلت: يا رسول الله روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود». فقال: «نعم؛ فقلت له: ما الذي شيّبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم فقال: «لا ولكن قوله: فاستقم كما أمرت». ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ نهي عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحد؛ ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾. وقيل: أي لا تتجبروا على أحد.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به، قال قتادة: معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم(٢). ابن جريج: لا تميلوا إليهم(٣). أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم(٤)؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد: الركون هنا الإدْهَان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم.

الثانية: قرأ الجمهور: «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو: هي لغة أهل الحجاز. وقرأ طلحة ابن مُصرِّف وقتادة وغيرهما: «تركُنوا» بضم الكاف؛ قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس. وجوز قوم ركَن يركَن مثل منَعَ يمنَع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قيل: أهل الشرك. وقيل: عامة فيهم وفي العصاة، على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾[الأنعام:٦٨] الآية. وقد تقدّم. وهذا هو الصحيح في معنى الآية؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة؛ وقد قال حكيم:

عن المرء لا تَسأَل وسَلْ عن قَرِينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقَارن يَقْتَدي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقِيّة فقد مضى القول فيها في «آل عمران» و«المائدة». وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي تحرقكم. بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

---

(١) حسن: وقد سبق في أول الكتاب.
(٢) ورواه عنه الطبري (١٢/ ١٣٣) بلفظ: لا يلحقوا بالشرك، والأثر في البحر المحيط (٥/ ٢٦٩).
(٣) إنما رواه منقطعاً عن ابن عباس كما في تفسير الطبري (١٢/ ١٣٣).
(٤) حسن إليه: السابق/ نفسه.

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يفزع في النوائب؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلّم إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة[١].

وقال شيوخ الصوفية: إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلاً؛ قال ابن العربي[٢]: وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجباً لا نفلاً، فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغّب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر[٣]؛ واختاره ابن عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب؛ قاله ابن عباس[٤] والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني العصر وحده؛ وقاله قتادة والضحّاك[٥]. وقيل: الطّرفان الظهر والعصر. والزُّلَف المغرب والعشاء والصبح؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة. وحكى الماورديّ أن الطرف الأوّل صلاة الصبح باتفاق.

قلت: وهذا الاتفاق ينقصه القول الذي قبله. ورجح الطّبري أن الطرفين الصبح والمغرب، وأنه ظاهر؛ قال ابن عطية: ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل. قال ابن العربي[٦]: والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل فقلب القوس ركوة، وحاد عن البرجاس غلوة؛ قال الطبري: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب، ولم يجمع معه على ذلك أحد.

قلت: هذا تحامل من ابن العربي في الرد، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح، وقد وقع الاتفاق إلا من شذّ بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمداً أن يومه ذلك يوم فطر، وعليه القضاء والكفارة، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار؛ فدلّ على صحة ما قاله الطّبري في الصبح، وتبقى عليه المغرب والردّ عليه فيه ما تقدّم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي في زُلَفٍ من الليل، والزّلف الساعات القريبة بعضها

---

(١) حسن: أبو داود (١٣١٩) في الصلاة وحسنه الألباني هناك. قلت: وحزبه أي: أصابه هم أو نزل به أمرهم كما في النهاية (١/ ٣٧٧) لابن الأثير.

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦٩) لابن العربي.

(٣) انظر البحر المحيط (٥/ ٢٧٠).

(٤) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس، كما عند الطبري (١٢/ ١٣٤) وكذا رواه عن الحسن.

(٥) انظر السابق.

(٦) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦٨) لابن العربي.

من بعض؛ ومنه سميت المزْدَلِفَة؛ لأنها منزل بعد عَرَفَة بقرب مكة. وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبي إسحاق وغيرهما «وَزُلَفاً» بضم اللام جمع زَلِيف؛ لأنه قد نطق بزليف، ويجوز أن يكون واحده «زُلْفة» لغة؛ كبُسرة وبسُر، في لغة من ضمّ السين. وقرأ ابن محيصن «وَزُلْفاً» من الليل بإسكان اللام؛ والواحدة زُلْفة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدرّة ودُرّ وبُرّة وبُرّ. وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضاً «زُلْفَى» مثل قُربى. وقرأ الباقون «وَزُلَفاً» بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف. قال ابن الأعرابي: الزلَف الساعات، واحدها زُلْفَة. وقال قوم: الزّلفة أوّل ساعة من الليل بعد مغيب الشمس؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العَتَمَة[١]؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن: المغرب والعشاء[٢]. وقيل: المغرب والعشاء والصبح؛ وقد تقدّم. وقال الأخفش: يعني صلاة الليل ولم يعين.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس وقال مجاهد: الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر[٣]، قال ابن عطية: وهذا على جهة المثال في الحسنات، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات؛ لقوله صلى الله عليه وسلّم: «ما اجتنبت الكبائر»[٤].

قلت: سبب النزول يعضد قول الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليَسَر بن عمرو. وقيل: اسمه عبّاد؛ خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج. روى الترمذي عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: إني عالجت امرأة[٥] في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسّها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلّم رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة»[٦]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وخرّج أيضاً عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلةَ حرام فأتى النبي صلى الله عليه وسلّم فسأله عن كفارتها فنزلت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ فقال: «لك ولمن عمل بها من أمتي»[٧]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروي عن أبي اليَسَر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت: إن في البيت تمراً أطيب من هذا، فدخلت معي في البيت فأهويت إليها

---

(١) فيه العلة قبل حديثين : الطبري (١٢/ ١٣٥) .

(٢) حسن إليه : السابق (١٢/ ١٣٦) .

(٣) انظر أبا حيان (٥/ ٢٧٠) في البحر المحيط .

(٤) صحيح : مسلم (٢٣١) في الطهارة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أي : داعبتها دون الجماع .

(٦) صحيح : مسلم (٢٧٦٣) في التوبة ، الترمذي (٣١١٢) في التفسير عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٧) صحيح : البخاري (٤٦٨٧) في التفسير ، مسلم (٢٧٦٣) في التوبة ، الترمذي (٣١١٤) في التفسير .

فقبلتـها، فأتيت أبا بكر فذكـرت ذلك له فقال: استـر على نفسك وتب ولا تخبر أحـداً فلم أصبر، فأتيت عمر فذكـرت ذلك له فقال: استر على نفسك وتُبْ ولا تخبر أحـداً فلم أصبر، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فـذكرت ذلك له فقال: «أَخْلَفْتَ غازياً في سـبيل الله في أهله بمثل هذا »؟ حتى تمنى أنـه لم يكن أسلم إلا تلك الساعـة، حتى ظن أنه من أهل النار. قـال: وأطرق رسول الله صلى الله عليـه وسلّم حتى أوحى الله إلـيه ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ . قال أبو اليَسَـر: فأتيته فقرأها عليّ رسـول الله صلى الله عليه وسلّم فقـال أصحابه: يا رسـول الله ألهذا خاصـة أم للناس عامـة؟ فقال: «بل للناس عـامة»(١). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقيس بن الربيع ضعّفه وَكِيعٌ وغيره؛ وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلّم أعـرض عنه، وأقيمت صلاة العـصر فلما فرغ منهـا نزل جبريل عليه السـلام عليه بالآية فدعاه فقال له: «أشهدت معنا الصـلاة »؟ قال: نعم؛ قال: «اذهب فإنها كفارة لما فعلت»(٢). وروي أن النبي صلى الله علـيه وسلّم لما تلا علـيه هذه الآية قـال له: «قم فـصل أربع ركعـات»(٣). والله أعلم. وخرّج الترمـذي الحكيم في «نوادر الأصول » من حديث ابن عبـاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قـال: «لم أر شيـئاً أحسن طلبـاً ولا أسرع إدراكاً من حـسنة حديثـة لذنب قديم » ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾(٤) .

الخامسة: دلّت الآية مع هذه الأحاديث عـلى أن القبلة الحرام واللّمس الحـرام لا يجب فيهـما الحدّ، وقـد يسـتدلّ به على أن لا حـدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وُجدا في ثوب واحـد، وهو اختيار ابن المنذر؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة ذكر هذا الحديث مشيراً إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتي ما للعلماء في هذا في « النور » إن شاء الله تعالى.

السادسة: ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ الآية. وقال: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية. وقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ ١٨]. وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. وقال: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧]. وقال: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] على ما تقدم. وقال: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه، وأحال علـى نبيه في بيانه؛ فقال جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فبيّـن صلى الله عليه وسلّم مواقيت الصـلاة، وعدد الركعات والسَّجَدَات،

---

(١) حسن : الترمذي (٣١١٥) في التفسير وحسنه الألباني هناك .

(٢) صحيح : مسلم (٢٧٦٥) في التوبة عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٣) ضعيف : الطبري (١٢/ ١٤٣) من حديث يحيي بن جعدة وهو تابعي ثقة ، ثم فيه مخالفة للحديث السابق .

(٤) ضعيف : الهيثمي (٧/ ٣٩) وقال : رواه الطبراني وفيه ملك بن يحيي بن عمرو البكري وهو ضعيف ، وكذلك أبوه ، ورواه البيهقي (٢/ ٢٩٦) في الزهد الكبير .

وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخاري: «صلّوا كما رأيتموني أصلي»[1]. ونقل ذلك عنه الكافّة عن الكافة، على ما هو معلوم، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلّم حتى بيّنَ جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] . . .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى. والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث.

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ﴾ أي على الصلاة؛ كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]. وقيل: المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى. ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني المصلين.

قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَ﴾ أي فهلاّ كان. ﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي من الأمم التي قبلكم. ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر. ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قومهم. ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل: لولا هاهنا للنفي؛ أي ما كان من قبلكم؛ كقوله: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ [يونس: ٩٨] أي ما كانت. ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن قليلاً. ﴿مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ نهوا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قوم يونس؛ لقوله: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾. وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق. ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركُوا وعَصَوا. ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أي من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي أهل القرى. ﴿ بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودلّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشّرك، وإن كان عذاب الشّرك في الآخرة أصعب. وفي

(١) صحيح: البخاري (٦٣١) في الأذان .

صحيح الترمذيّ من حديث أبي بكر الصـدّيق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقـول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يـأخذوا على يديـه أوشك أن يعمـهم الله بعـقـاب من عنده»[١]. وقد تقدّم. وقـيل: المعنى وما كان ربك ليـهلك القرى بظلم وأهلها مسلمـون، فإنه يكون ذلك ظلماً لهم ونقصاً من حقهم، أي ما أهلك قـوماً إلا بعد إعذار وإنذار. وقال الزّجاج: يجوز أن يكون المعنى مـا كان ربك ليـهلك أحداً وهو يظلمـه وإن كان على نهـاية الصلاح؛ لأنه تـصرف في ملكه؛ دليله قـوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٤]. وقـيل: المعنى وما كـان الله ليـهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي مخلصون في الإيمان. فالظلم المعاصي على هذا.

قولـه تـعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال سـعيد بن جُـبيـر: على ملّة الإسلام وحدها[٢]. وقال الضّـحاك: أهل دين واحـد، أهل ضلالة أو أهل هدى. ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أي على أديان شتى[٣]؛ قالـه مجاهد وقتادة. ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن من رحم ربك بالإيمان والـهدى فـإنه لم يختلف. وقـيل: مختلفين في الرزق، فـهذا غنيّ وهذا فقـير. ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بالقناعة؛ قالـه الحسن. ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء وعيمان: الإشارة للاختلاف؛ أي وللاختلاف خلقـهم. وقال ابن عباس ومجاهد وقَـتَادة والضّحاك: ولرحمتـه خلقهم؛ وإنما قال: «وَلِذَلِكَ» ولم يقل ولتلك، والرحـمة مؤنثـة لأنه مصـدر؛ وأيضاً فإن تأنيث الرحـمة غـير حقـيقي، فحـملت على معنى الفضل. وقـيل: الإشارة بذلك للاختـلاف والرحمة، وقـد يشار بـ «ذلك» إلى شيئين متضادين؛ كقولـه تعالى: ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ١١٠] وكذلك قولـه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس: ٥٨] وهذا أحسن الأقـوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أي ولِما ذُكِـر خَلَقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكاً عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفـريق في السعير؛ أي خلَق أهل الاختلاف للاخـتلاف، وأهل الرحمة للرحمة[٤]. وروي عن ابن عباس أيضاً قال: خَلَقهم فريقين، فريقاً يرحمه وفريقاً لا يرحمه[٥]. قال المهـدويّ: وفي الكلام على هذا التقـدير تقديم وتـأخيـر؛ المعنى: ولا يزالون مختـلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جـهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم. وقـيل: هو متعلق بقولـه: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] والمعنى: ولشهود ذلك اليوم خلقهم. وقيل: هو متعلق بقولـه: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي للسّعادة والشّقاوة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى ﴿تَمَّتْ﴾ ثبت ذلك كما أخبر وقدّر في أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التـغيير والتبديل. ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ مِنَ﴾ لبيان الجنس؛ أي

---

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) الطبري (١٢/ ١٤٨) عن قتادة .

(٣، ٤) ذكره ابن كثير (٤/ ٢٥٢) في تفسيره .

(٥) منقطع : بين علي بن أبي طلحة الوالبي وابن عباس رضي الله عنهما كذا عند الطبري (١٢/ ١٥٠) .

من جنس الجنة وجنس الناس. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلّم أنه يملأ جنته بقوله: «ولكل واحدة منكما ملؤها». خرجه البخاريّ من حديث أبي هريرة وقد تقدّم[1].

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ﴿كُلًّا﴾ نصب بـ﴿نَّقُصُّ﴾ معناه وكلّ الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك. وقال الأخفش: ﴿كُلًّا﴾ حال مقدّمة، كقولك: كُلاً ضربت القوم. ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتاً ويقيناً. وقال ابن عباس: ما نشدّ به قلبك. وقال ابن جُريج: نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع. وقال أهل المعاني: نُطيّب، والمعنى متقارب: و﴿مَا﴾ بدل من ﴿كُلًّا﴾ المعنى: نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي في هذه السورة؛ عن ابن عباس وأبي موسى[2] وغيرهما؛ وخصّ هذه السورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار. وقيل: خصّها بالذكر تأكيداً وإن كان الحقّ في كل القرآن. وقال قَتَادة والحسن: المعنى في هذه الدنيا، يريد النبوّة[3]. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لهذه السّورة؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التّخصيص. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، وقد تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي غيبهما وشهادتهما؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن عباس: خزائن السموات والأرض. وقال الضّحاك: جميع ما غاب عن العباد فيهما. وقال الباقون: غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض. وقال أبو علي الفارسيّ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي علم ما غاب فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى

---

(١) صحيح: وقد سبق في الصحيحين.

(٢) الإسناد إلى أبي موسى وإلى ابن عباس رجاله ثقات كما عند الطبري (١٢/ ١٥٣) في تفسيره.

(٣) السابق (١٢/ ١٥٤).

المفعول توسعاً؛ لأنه حذف حرف الجر؛ تقول: غبت في الأرض وغبت ببلد كذا. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي يوم القيامة؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص «يُرْجَعُ» بضم الياء وبفتح الجيم؛ أي يُرَد. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي الجأ إليه وثق به. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي يجازي كلا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة. الباقون بياء على الخبر. قال الأخفش سعيد: « يعملون » إذا لم يخاطب النبي ﷺ معهم؛ قال: بعضهم وقال: «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلّم وقال: قل لهم: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. وقال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة «هود »[1] من قوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ إلى آخر السورة.

تمت سورة «هود» ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام.

(١) هذا مرسل: وفيه سفيان بن وكيع وهو ضعيف، وذكره الطبري (١٢/ ١٥٦) وابن الضُّريس (١٩٩) في فضائل القرآن، وزاد السيوطي (٨/ ١٧٤) في الدر المنثور عزوه لأبي شيخ.

obeikandl.com